

## مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في العصر الجاهلي في كتاب المفضليات

ماهر أحمد المبيضين\*

عيسى عودة برهومة\*\*

### ملخص

هذه دراسة لمظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية عند العرب في كتاب يعد من أهم مصادر الشعر الجاهلي وهو المفضليات، المحتفظ بأجود الشعر، باعتباره ديوان العرب ووثيقة لحياة الناس ولأخبارهم، وتعبيراً عن رؤى الشعراء، وفي كتاب المفضليات تتجسد العلاقات الاجتماعية والقيم والعادات التي تسهم في تشكيل سلوكيات الفرد في ذلك المجتمع، في ضوء استقراء الأشعار الوارد في المفضليات، وتشفّ الدراسة عن أبرز العادات والقيم التي دعت إليها الجاهلية، وأبرز العادات التي استقبلتها ودعت لتركها.

وبعد استجلاء هذه المشاهد الثقافية الاجتماعية اتضح معالم من الحياة الثقافية والاجتماعية في ضوء ما اختاره المفضل في مفضلياته من أشعار.

### Abstract

The paper studies aspects of the Arab socio-cultural life as portrayed in the book of Mufadaliyat, one of the best and most important sources on pre-Islamic poetry. Mufadaliyat, provides a vivid portrayal of the social relationships and values, which contribute to the formation of the behavior individual in society.

Having analyzed these social scenes in the poetry, the researchers gives us a vivid picture of what life was like in the jahiliah Age according to Mufadaliyat.

The study ideufified both cherisled and repelled social customes and values of the Arabs.

\* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن.

\*\* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن.

تاريخ قبول البحث: 2006/5/8 تاريخ تقديم البحث: 2005/11/15.

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2007.

## مقدمة

حظي الشعر العربي بمكانة متميزة في الثقافة العربية، جعلت منه عنصراً مهماً في دراسة البيئة والمجتمع والسلوكيات والأخلاقيات، وقد انكبَّ عليه الباحثون لما يختزله هذا الشعر من رؤى كاشفة لجوانب من مظاهر حياة هذا المجتمع. وتهدف الدراسة إلى الكشف عن التحليلات الثقافية والاجتماعية للعرب في العصر الجاهلي من خلال منهج تحليل المضمون وتطبيقه على المفضليات، ما يسهم في تحليل البيئة الاجتماعية وفي تفسير خصائصها بأسلوب عميق.

وستتناول الدراسة السلوك الاجتماعي الذي يتضمن سلوك الأفراد وأفعالهم، والثقافة، والمعتقدات، والقواعد والأفكار، والعادات، والقيم التي هي طريقة حياتهم.

وقد ربطنا الشعر بأصول الناس الاجتماعية وحاولنا استقراء معالم سلوكهم الثقافي والاجتماعي من خلال ما تمخضت عنه قرائحهم الشعرية، على الرغم من أن غاية الشعر ليست تسجيل أحداث الحياة وحوادثها إلا أنه كان ديوان العرب الأول، فيه يجدون علمهم الذي أودعوه فيه، حيث يجدون أنواعهم وأنسابهم وما إلى ذلك، فهو علم قوم ليس لديهم علم غيره، ولم يترك الجاهليون وسيلة أكثر منه وفاءً يتضمن مظاهر سلوكهم الثقافي والاجتماعي وغيرها من مظاهر التشكيلات الفردية والجماعية، نلمس فيها صدى تجاربهم الحياتية في المكان والزمان، وقد درسنا الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي لما تتصف به من الغنى والخصب، ولكونها تمثل درجة من درجات ارتقاء الروح الفردية - من جهة - ومرحلة من مراحل التشكل الاجتماعي من جهة أخرى، مع التنويه إلى أن الشعر الجاهلي لا ينصف بشأنه شأن كل شعر بشمولية الواقع ولا يعنى بجزئيات الحياة وتفصيلاتها، فهو كلي يعنى بالأمور الكلية وبثوابت الكيان النفسي للشخصية العربية.

وجل ما تبتغيه الدراسة هو تلمس الجوامع الإنسانية الشاملة على اختلاف الظروف في هذه البيئة العربية الجاهلية، التي خضعت لشتى عوامل البيئة المادية والثقافية، مع التنبيه إلى أن الشاعر لم يقصد التسجيل التاريخي كما أسلفنا، وإنما يريد أن ينفس عن عاطفته ومشاعره لما يعاينه من الظروف الصعبة والقاهرة في هذه البيئة القاسية. وقد توزعت الدراسة في ثلاثة محاور:

- المحور الأول: العادات والتقاليد التي عكست تجليات هذا المظهر الاجتماعي في ضوء ما اتسمت به الشخصية العربية الجاهلية من قيم وسلوكيات، شملت خلاصة التجارب والمواقف الاجتماعية في تلك البيئة.
  - المحور الثاني: العلاقات الأسرية في إطارها الضيق والواسع، فهي تمثل الانتماء الاجتماعي.
  - المحور الثالث: المعتقدات الجاهلية التي سيطرت على العقلية العربية في العصر الجاهلي والتي ارتبطت بتشكيل أسطوري لدى الشعر الجاهلي.
- وانتهت الدراسة إلى عرض أهم المظاهر الاجتماعية والثقافية وتحليلاتها في كتاب المفضليات.

## منهجية البحث

### وحدة التحليل

تنعياً هذه الدراسة السلوك الإنساني والمواقف والاتجاهات والقيم الماثلة في الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات، وقد توسلت الدراسة منهج تحليل المضمون لتركيزه على العبارات والكلمات التي تمثل الحياة الاجتماعية، من خلال الأشعار الجاهلية التي تضمنها كتاب المفضليات، وذلك لمعرفة ما تستكته حياتهم في هذه الحقبة، كما تناول هذا المنهج دراسة المحيط الاجتماعي، الظروف الزمانية والمكانية التي تؤثر في القيم، كاستبدال قيم بقيم جديدة أو صراع القيم مع غيرها من القيم الأخرى، تبعاً للظروف والمستجدات والتطورات التي تطرأ على المجتمع، وبين أن مجموعة القيم وأنماط السلوك وصور النظم وأشكال التنظيمات الاجتماعية إنما تعبر عن نفسها عن طريق التواصل والتفاعل الاجتماعيين، وهذه الأمور ليست بالثابتة، بل هي متغيرة يشكلها الإنسان ضمن الزمان والمكان والمفاهيم السائدة أو المستجدة، وهذا ما أسفر عنه منهج تحليل المضمون في دراسة المظاهر الاجتماعية في كتاب المفضليات للمجتمع الجاهلي.

**العادات:** هي التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع، وهي تكرير الشيء دائماً أو غالباً على نهج واحد، ومن شروط هذا العمل الاستمرارية، وتعني العرف الاجتماعي أو طريقة السلوك المشترك بين أعضاء الوسط الاجتماعي أو الفئة الاجتماعية، فالعادة هي ما يفعله البشر طبيعياً إذا ما وضعوا في الظروف المناسبة، وضرورتها الحيوية للمجتمع مرادفة للضرورة الحيوية للغرائز بالنسبة للفرد، فهي تعد جزءاً حيوياً من وجود الوسط الاجتماعي، وتعني طريق اشتغال نظام من القيم، ويعتبر المجتمع أن الخروج عليها يشكل سابقة تهدد هذا النظام؛ وللدفاع عن هذا النظام يتم بالتأكيد على ممارسة العادات التي تؤمن بدعومة نظام القيم، وإما بمعاينة المخالف تحت أي شكل من أشكال العقاب. (1)

وعرفها بعض علماء الاجتماع على أنها: "سلوك أو نمط سلوكي تعدده الجماعة صحيحاً وطبيعياً، وذلك بسبب مطابقته للتراث الثقافي القائم، وهذه العادة ضرورة اجتماعية". (2)

وبعض العادات مفيد ونافع للحياة الاجتماعية، والعادات الاجتماعية تؤدي إلى تعزيز وحدة المجتمع وتقوية الروابط بين أفرادها والتجانس في تصرفاتهم، وقد تكون هناك عادات ضارة وشاذة تمثل حالات مرضية، ويتم استبدالها بعادات جديدة؛ لأن الإنسان ابن عوائده، فالعادات متغيرة.

**التقاليد:** هي طائفة من قواعد السلوك الخاصة بطريقة معينة تنشأ من الرضا والاتفاق الجمعي على إجراءات وأوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه، وتستمد التقاليد قوتها من قوة المجتمع. (3)

والتقاليد أشد رسوخاً وتمسكاً من العادات وأكثر بقاء أمام التغير والتطوير، فالتقليد ثابت وهو نمط سلوكي يتميز عن العادة بأن المجتمع يقبله عموماً دون دوافع أخرى عدا التمسك بسنن الأسلاف، وتجتمع التقاليد مع العادات بأنها حاصل الاجتماع الإنساني وليست سبباً له وهي حاصل الاشتراك في الحياة الواحدة، وكما أنها حاصل تفاعلهم بعضهم مع بعض لفترة طويلة من الزمن، فهي مكتسبة من خلال تفاعل الجماعة الإنسانية.

مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في العصر الجاهلي ... ماهر أحمد المبيضين، و عيسى عودة برهومة

**الأعراف:** هي طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ لدى الجماعة وتنعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال يلجأون إليه في كثير من مظاهر سلوكهم الجمعي<sup>(4)</sup> وهو ما يتصل به من العقائد الشعبية وأفكار العامة يعد أهم جزء من دستور الأمة غير المكتوب، وقد تصل إلى درجة القواعد القانونية، ويرتبط بالقول أو الناحية العقيدية والعقلي.

وتتشترك العادات والأعراف بأنها متغيرة تبعاً لتطور البيئة والحياة، ويستبدل الإنسان العادات بعادات جديدة تتسق مع الزمن والمكان تقدم حياته.

ويعد كل سلوك متكرر يكتسب اجتماعياً، يتعلم اجتماعياً ويمارس اجتماعياً، ويتوارث اجتماعاً.<sup>(5)</sup>

**الدين والمعتقدات:** وتشمل تفسيرات الإنسان للظواهر الكونية المحيطة به، سواء أكانت ظواهر طبيعية أم بشرية، فالدين عند المجتمعات البدائية على سبيل المثال عبارة عن أنماط السلوك المتعلقة بعلاقات الإنسان بالقوى المجهولة وانساق المعتقدات والطقوس المرتبطة بتقديس هذه القوى.<sup>(6)</sup>

وهو جملة العقائد والتصورات عن الخالق والمخلوقات وكيفية صدورهما عن الخالق، فهو يركز على عقائد محددة تنتقل من السلف إلى الخلف، فالدين منظور إليه بوصفه ظاهرة اجتماعية، وعلاقته بالمجتمع وتأثيره فيه وتأثره أيضاً، كما أنه حاجة اجتماعية تبغي الأمان والطمأنينة.

**القيم الإنسانية:** القيمة تشكل المرغوب، والرغبة لا تنتهي عند موضوع كما تنتهي الحاجة، بل إنها تحيل على أفكار، بل على مُثُل عليا وهي مما يقبل الاستبدال، وهي تقبل التحول بعضها إلى بعض<sup>(7)</sup>، بيد أن القيمة تبقى اختيار الإنسان، وهو وحده الفاعل القادر على إخراج القيمة، فكما أنها تدل على شواهد جزئية تدل على تحقق مثل أخلاقي أعلى في الثقافة وفي المجتمع وطبيعة يصنعها الإنسان<sup>(8)</sup>

وقد عرفها فولسوم J.V.Folsom على أنها نمط أو موقف أو جانب من السلوك الإنساني أو مجتمع أو ثقافة أو بيئة طبيعية، أو العلاقات المتبادلة التي تمارس من شخص أو أكثر كما لو كانت غاية في حد ذاتها، إنها شيء يحاول الناس حمايته والاستزادة منه، والحصول عليه ويشعرون بالسعادة، ظاهرياً عندما ينجحون في ذلك.<sup>(9)</sup>

وهي اتصال قوي وحتمي بموضوعات وقيم أو معايير أو أشخاص ينظر إليهم باعتبارهم وسيلة لإرضاء حاجات الكائن، كما عرفها مالمينوفسكي Malinowski<sup>(10)</sup>، والقيمة الاجتماعية هي أي مدلول له محتوى من السهل الوصول إليه بالنسبة لأعضاء الجماعة وله معنى ليصبح من أجله موضوعاً للنشاط، فالقيم الاجتماعية هي القيم المرغوب بها.

ومن خلال دراستنا للمفضليات بدا لنا أن للعرب قيماً عديدة نحو؛ قيم الجود والعطاء، وقيم الشجاعة، وقيم البذل والشعور مع الآخرين، وقيم الوفاء. وبعد التغير الذي حصل على المجتمع الجاهلي ظهرت قيم جديدة، مما قد يشعر المرء بانفصام لدى الانتقال من قيمة إلى أخرى، ولكن القيم يوجه الدقة قد تعايش لأنها ليست نظاماً واحداً دون أن يطرد أحدها.

وقد ترسخت هذه القيم لأنها تشمل الأبعاد المادية والمعنوية، وتجسد الإنسان بكل ما يحمل؛ لأنها تطبعه وتسهم في تشكيل سلوكه من خلال دوائر الوجود الجمالي والأخلاقي والديني، فالذات الإنسانية هي التي ترسخ القيم والمعتقدات، وهي الفاعل الذي تنشأ من خلاله القيم، وتغيرها الذات، واستبدالها بغيرها يكون وفقاً للتطورات والظروف.

### المظاهر الثقافية والاجتماعية في المفضليات

#### الخور الأول: القيم الإنسانية

هي مجموعة من القيم والسلوكيات السائدة في الحياة العربية، وهي تمثل سلوكيات إيجابية وسلبية في زمانها في العصر الجاهلي.

#### القسم الأول: القيم الإيجابية

##### 1- الكرم

وهو من الخصال الحميدة ومن الدروس التي لقتها الطبيعة للإنسان العربي، فمهما كان العربي فقيراً فعليه تقديم ما عنده للضيف؛ إنفاذاً له من قحط البادية ومن شحها، وخشية من النقد الاجتماعي الذي قد يلحق المضيف إن قصر في حق ضيفه.

هذه الصفة كانت من أعظم مفاخرهم وأسمى قيمهم، وتعد من الصفات الإنسانية التي يتحلى بها العربي الأصل، وكما أن الطبيعة الخارجية والبيئة الاجتماعية للمجتمع القبلي فرضت وجود الكرم والضيافة، كما تمتزج هذه الصفة بالفخر، وهي صفة معتبرة في حياة العربي، لذلك نرى هذه الصلة ترددت كثيراً في المفضليات. ومن هنا كان الكرم: "حلاً جيداً ملائماً لمشكلات سببتها طبيعة الأرض والبيئة الاجتماعية، والحالة الاقتصادية، لقد كان هذا الحل في المجتمع الجاهلي ضرورياً، لذلك نظر الشعر إلى قيمة الجود بعين الاعتبار والتقدير وأشادوا بها..." (11)

عاش العرب في الصحراء المقفرة حيث يسود الجذب والقحط في معظم أيام السنة، مما عرضهم إلى فقدان الغذاء، فأدى هذا إلى نشوء شعور من التضامن بينهم، فيقري المرء ضيفه، ويساعد المحتاج، ويطعم الجائع، ويغث الملهوف: "لذا كان المال في نظرهم وسيلة لا غاية، وسيلة إلى الحياة الشريفة وإلى كسب المحامد". (12)

فالكرم دليل انتماء اجتماعي، وضرورة من ضرورات التعامل في الحياة الاجتماعية، حيث تمتزج الأنا بالجماعة، وتذوب من أجل الآخرين، فيتكرر مشهد الكرم في كتاب المفضليات بإبراز هذه القيمة الأخلاقية، فهذه القيمة يجسدها لنا بشكل معمق الشعر، ولا غرابة في ذلك فهو ديوان العرب، من ذلك قول ذي الإصبع العدواني: (13)

إني لعمرك ما بآبي بذِي غَلَقٍ      عَنْ الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَثُونِ

فهو يؤكد هذه الصفة وأن بابه لم يغلق يوماً، دلالة على كرمه وطيب نفسه.

ومن هنا امتدح الشعراء الكرم، وتغنوا بمدوحهم بهذه الصفة، فقال ربيعة بن مقروم: (14)

مَا لَمْ أَلَاقِ امْرَأً جَزَلًا مَوَاهِبُهُ	سَهْلَ الْفَنَاءِ رَحِيبَ الْبَاعِ مَحْمُودًا
وَقَدْ سَمِعْتُ يَقُومُ يُحْمَدُونَ فَلَمَّ	أَسْمَعُ بِمِثْلِكَ لَا حِلْمًا وَلَا جُودًا
وَلَا عَفَافًا وَلَا صَبْرًا لِنَائِبَةِ	وَمَا أَتْبَى عَنْكَ الْبَاطِلَ السَّيِّدَا
لَا حِلْمُكَ الْحِلْمُ مَوْجُودٌ عَلَيْهِ، وَلَا	يُلْفَى عَطَاؤُكَ فِي الْأَقْوَامِ مِنْكَ جُودَا
وَقَدْ سَبَقَتْ بَغَايَاتِ الْجِيَادِ وَقَدْ	أَشْبَهْتَ آبَاءَكَ الصَّيِّدَ الصَّنَادِيدَا
هَذَا ثَنَائِي بِمَا أُولِيتُ مِنْ حَسَنِ	لَا زِلْتُ عَوْضُ قَرِيرِ الْعَيْنِ مَحْسُودَا

فالشاعر في هذه الأبيات يمدح المدوح، ويصفه بالكرم وكثرة العطايا، فتمتاز خصلة الكرم عند المدوح بالحلم، وبالفخر أيضاً.

كما عبر العربي عن الاحتفاء بالضيف، ورحب به، ووصف المبالغة بالحفاوة به، إذ قال شبيب بن الرصاء: (15)

وَقَدْ عَلِمْتُ أُمُّ الصَّبِيِّينَ أَنْتَنِي	إِلَى الضَّيْفِ قَوَّامُ السَّنَاتِ خَرُوجُ
وَأَنِّي لِلْغُلِيِّ اللَّحْمَ نَيْئًا وَإِنِّي	لَمَمَّنْ يَهِينُ اللَّحْمَ وَهُوَ نَضِيجُ
إِذَا الْمُرَضِعُ الْعَوَجَاءُ بِاللَّيْلِ عَزَّهَا	عَلَى ثَدْيِهَا ذُو وَدَعَتَيْنِ لَهْجُ
إِذَا مَا ابْتَغَى الْأَضْيَافُ مَنْ يَبْذُلُ الْقَرَى	قَرَّتْ لِي مَقْلَاتُ الشَّتَاءِ خَدُوجُ

فيصف الشاعر نفسه بأنه مقدم في إكرام الضيف، ويتضح ذلك من صيغة المبالغة (قَوَّام)؛ لأنه يبذل وسعه لضيافة ضيوف الليل، فإذا كان نائماً وأتاه أكرمه وأحسن طعامه، حتى في أيام الشتاء فإنه لا يتوانى عن ترك فراشه إذا طرقه الضيوف.

ونلاحظ صفة المبالغة في وصفهم كرمهم وجودهم، فهذا مشهد آخر في إكرام الضيف يرسمه عبد يغوث باستعمال صيغة المبالغة (نَحَّار)، كما يضيف صفات أخرى تتصل بالقدرة على اختراق الصحراء والنفاذ إلى أعماقها البعيدة، حيث لا حياة، ولا أحب إليهم من اللهو والخمر والغناء، فيقول عبد يغوث: (16)

وَقَدْ كُنْتُ نَحَّارَ الْجَزُورِ وَمُعْمِلَ الْ-	مَطِيِّ وَأَمْضِي حَيْثُ لَا حَيٍّ مَاضِيَا
وَأَخْرُ لِلشَّرْبِ الْكِرَامِ مَطِّيَا	وَأُصْدَعُ بَيْنَ الْقَيْتَيْنِ رِدَائِيَا

فبعد إكرامه للضيف بالطعام والشراب يكرمه أيضاً بسماع الطرب والقيان، فهم يحتفون بالضيف ويقدمون له أفضل ما عندهم، فليس حضوره ثقيلاً عليهم، بل إن الكرم يصبح واجباً على العربي في السنين المجدية، يصور ذلك المراد بن منقذ إذ يقول: (17)

إِذَا كَانَ السَّنُونُ مُجْلَحَاتٍ      خَرَجْنَ وَمَا عَجَفْنَ مِنَ السَّنِينَا  
يَسِيرُ الضَّيْفُ ثُمَّ يَحِلُّ فِيهَا      مَحَلًّا مُكْرَمًا حَتَّى يَبِينَا

ويعقد علقمة بن عبدة مقارنة بين الكرم والبخل، فيقول: (18)

وَالْجُودُ نَافِيَةٌ لِلْمَالِ مَهْلَكَةٌ      وَالْبُخْلُ بَاقٍ لِأَهْلِيهِ وَمَذْمُومٌ  
وَالْمَالُ صُوفٌ قَرَارٍ يَلْعَبُونَ بِهِ      عَلَى نَقَادَتِهِ وَافٍ وَمَجْلُومٌ

فتظهر إهانة المال، وأن العربي لا يحسب للمال قيمة، ويرسم صورة مفارقة ومقارنة ما بين الكريم والبخل، فهو باق في أهله وبين عشيرته، والوجود ليس صفة الأثرياء حسب، بل هي قيمة اجتماعية يمارسها المعدمون أيضاً.

ويبدل العربي جهده في إكرام ضيفه، وهذا ما صورته الحارث بن حلزة الشكري في قوله: (19)

وَإِذَا اللَّقْحَاحُ تَرَرَوْحَتْ بَعْشِيَّةٌ      رَثَاكَ النَّعَامُ إِلَى كَنَفِ الْعَرْفَجِ  
أَلْفَيْتَنَا لِلضَّيْفِ خَيْرَ عِمَارَةٍ      إِنْ لَمْ يَكُنْ لَبَنٌ فَعَطْفُ الْمُدْمَجِ

فالشاعر يمدح قبيلته ونفسه، فهم خير عمارة (القبيلة العظيمة)، فإن لم يكن في إبلنا لبن عطفنا على القداح فضربنا بها للأضياف فنحرننا لهم.

وقد غدا الممدوح في نظر مادحه السيف في حدة كرمه، يقول متمم بن نويرة: (20)

تَرَاهُ كَصَدْرِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى      إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ امْرِئِ السَّوْءِ مَطْعَمًا

أما الشاعر السفاح بن بكير اليربوعي فيصف حال ضيفه بعد خروجه من عنده قائلاً: (21)

وَالْمَالِيُّ السَّيْفِيُّ الْأَضْيَافُ      كَأَنَّهَا أَعْضَادُ حَوْضٍ بِقَاعُ  
لَا يَخْرُجُ الْأَضْيَافُ مِنْ بَيْتِهِ      إِلَّا وَهُمْ مِنْهُ رِوَاءُ شِبَاعُ

والشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي يستقبل الطارق في الليل بالترحيب والتهليل، فيقول: (22)

وَطَارِقٍ لَيْلٍ كُنْتُ حَمًّا مَبِيَّتَةً      إِذَا قُلَّ فِي الْحَيِّ الْجَمِيعِ الرُّوْفُ  
وَقُلْتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا      وَأَكْرَمْتُهُ حَتَّى غَدَا وَهُوَ حَامِدُ

هذا الضيف الذي استقبله بالترحيب والتأهيل وأكرمه، خرج من عنده وهو يحمده ويشكره على حسن ضيافته وإكرامه.

وإذا ما اشتد الزمان وكان القحط ولم يطعم أحد صاحبه لضيق العيش، فإن الشاعر عوف بن عطية يجزل العطاء، ويكرم الضيوف، فيقول: (23)

فَمَا زَادَنِي الشَّيْبُ إِلَّا نَدَى إِذَا اسْتَرَوْحَ الْمُرْضِعَاتُ الْقِسَارَا  
أُحْيِي الْخَلِيلَ وَأُعْطِي الْجَزِيلَ حَيَاءً وَأَفْعَلُ فِيهِ الْيَسَارَا

فهو يعبر عن الكرم تعبيراً مجازياً من خلال الندى، فمهما شاب وهرم، فإنه لن يتوانى عن إكرام الضيف. ويسبغ الجاهلي سخاءه على الأرامل واليتامى من البائسين والفقراء، وهذا المشهد يتكرر لدى أغلبية الشعراء، يقول متمم بن نويرة: (24)

وَضَيْفٌ إِذَا أَرْغَى طُرُوقاً بَعِيرَهُ وَعَانَ ثَوَى فِي الْقَدِّ حَتَّى تَكْنَعَا  
وَأُرْمَلَةٌ تَمْشِي بِأَشِيعَتِ مُحْثَلٍ كَفَرُخَ الْحُبَارَى رَأْسُهُ قَدْ تَضَوَّعَا  
إِذَا جَرَّدَ الْقَوْمُ الْقِدَاحَ وَأَوْقَدَتْ لَهُمْ نَارُ أَيْسَارٍ كَفَى مَنْ تَضَجَّعَا  
إِنْ شَهِدَ الْأَيْسَارَ لَمْ يُلَفْ مَالِكَ عَلَى الْفَرَثِ يَحْمِي اللَّحْمَ أَنْ يَمَزَّعَا

كما أن العربي افتخر بكل صفات الكرم، فلم ينسَ الافتخار بطيب زاده، فيقول راشد بن شهاب اليشكري مدافعاً عن زاده الطيب: (25)

وَلَكِنْ أَنْبَاءٌ أَتَتْنِي عَنْ امْرِئٍ وَمَا كَانَ زَادِي بِالْخَبِيثِ كَمَا زَعَمَ  
وَلَكِنِّي أَقْصِي ثِيَابِي مِنَ الْخَنَا وَبَعْضُهُمْ لِلْعَدْرِ فِي ثَوْبِهِ دَسَمَ

ويصور الشاعر إتلافه المال في المنفعة للجميع، كما يبدو ذلك في حديث الحارث بن حلزة عن جوده وعطاياه وإسرافه في المال في إكرام ضيوفه قائلاً: (26)

يَحْبُوكُ بِالزُّعْفِ الْقَيْوُضَ عَلَى هُمَيَّالَهَا، وَاللُّدْهُمَ كَالْعَرَسِ  
وَبِالسَّيِّكِ الصُّفْرُ يُضْعِفُهَا وَبِاللُّغَسِ  
لَا يَرْتَجِي لِلْمَالِ يُهْلِكُهُ سَعْدُ النُّجُومِ إِلَيْهِ كَالنُّحْسِ  
فَلَهُ هُنَالِكَ لَا عَلَيْهِ إِذَا ذَنَعَتْ أَنْوْفُ الْقَوْمِ لِلتُّعَسِ

كما يغدو الكرم صفة حميدة، تقول امرأة من بني حنيفة ترثي يزيد بن عبدالله بن عمر الحنفي: (27)

أَلَا هَلْكَ امْرُؤٌ حَبَّاسُ مَالٍ عَلَى الْعِلَاتِ مِثْلَافٌ مُفِيدُ



فهذا المرء متلاف للمال، لكن هذا الإتلاف مفيد ذو منفعة.

وارتبط بخصلة الكرم رجع نباح الكلب، فالضيوف والمحتاجون كانوا يقلدون نباح الكلاب ليستدلوا على خيمة الجواد، ويسمى المحتاج الذي يقلد نباح الكلاب المستنبح، وقد يذكر مرتبطاً بالظروف المرافقة كالريح أو الليل، (28) ومن هنا قال عمرو بن الأهتم: (29)

وَمُسْتَنْبِحٌ بَعْدَ الْمُدْوَةِ دَعْوَتُهُ      وَقَدْ حَانَ مِنْ نَحْمِ الشِّتَاءِ خُفُوقُ  
يُعَالِجُ عِرْنِينًا مِنَ اللَّيْلِ بَارِدًا      تُلْفُ رِيحُ ثَوْبِهِ وَبُرُوقُ  
تَأْلُقُ فِي عَيْنٍ مِنَ الْمَزْنِ وَادِقٍ      لَهُ هَيْدَبُ ذَايِ السَّحَابِ دَفُوقُ

ولم يُقصر الكرم على الضيوف من البشر، بل اشتمل كرم العربي على الحيوان أيضاً، فلم يخل عليه وأكرمه كما يكرم الضيف، فيصور لنا المرقش الأكبر ذئباً باتساً حين أقبل على ضوء ناره، فأكرمه حتى شبع وعاد مسروراً ينفض رأسه: (30)

وَلَمَّا أَضَانَا النَّارَ عِنْدَ شِوَائِنَا      عَرَانَا عَلَيْهَا أَطْلَسُ اللَّوْنِ بَائِسُ  
نَبَذْتُ إِلَيْهِ حُرَّةً مِنْ شِوَائِنَا      حَيَاءً، وَمَا فُحْشِي عَلَى مَنْ أَجَالِسُ  
فَاضَ بِهَا جَذْلَانِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ      كَمَا آبَ بِالنَّهْبِ الْكَمِيُّ الْمُحَالِسُ

ولم يكن الكرم لينحصر في الأغنياء ومن يمتلكون المال، بل كانت القدرة على تحمل شدة الزمان ومواجهة صعاب الحياة أمراً يدعو إلى الفخر والعظمة، وهي تمثل مشهداً من مشاهد البطولة، فهذا عبدالله بن سلمة يفتخر بأن فناء ثروته من الإبل وجذب الحياة لم يمنعه من الكرم: (31)

أَلَا لَمْ يَـبَـرَـتْ فِي اللَّـزَبَاتِ ذَرْعِي      سُـوَافُ الْمَالِ وَالْعَامُ الْجَدِيدُ

وكان من أبرز سمات كرم العرب بأن يُبرزوا قدورهم أمام بيوتهم ويوقدوا النيران ليلاً، ليهتدي بها الضيوف فيأوون إليهم، يقول حاتم الطائي: (32)

وَأَبْرَزُ قَدْرِي فِي الْفَضَاءِ قَلِيلُهَا      يُرَى غَيْرَ مَظْلُونٍ بِهِ وَكَثِيرُهَا  
وَلَيْسَ عَلَى نَارِي حِجَابٌ يَكُفُّهَا      لِمُسْتَوْبِصٍ لَيْلًا وَلَكِنْ أَنْبَرُهَا

مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في العصر الجاهلي ... ماهر أحمد المبيضين، و عيسى عودة برهومة

وهذه النار كانوا يوقدونها كي يهتدي الضالون في الصحراء ليلاً، ولكي يأتي التائهون على النيران ضيوفاً، وكان العرب يفتخرون بهذه النيران، فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع كانت أدعى للفخر وأعظم. يقول حاتم لزوجه: (33)

وَلَكِنْ بِهَذَاكَ السِّفَاعِ فَأَوْقِدِي      بِحَزْلٍ إِذَا أَقْدَتْ لَا بِضَرَامٍ

واشتهرت هذه النار بـ (نار القرى) في شعر العرب، ونجدها كثيراً في كتاب المفضليات، منها قول عمرو بن الأهتم: (34)

وَكُلُّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الدَّمَ بِالْقَرَى      وَلِلْخَيْرِ بَيْنَ الصَّالِحِينَ طَرِيقُ

فلا يكفي أن يكون الشخص كريماً، إذ لابد من صفات تدل على كرمه، نحو: أن يكون طلق الوجه، طيب النفس، يؤنسهم بحديثه حتى ينضج الطعام ويجهز، فيصف المرقش الأكبر قَدْرَ الطعام الذي نُصِبَ على النار وهو وضيوفه من حوله فيقول: (35)

وَقِدْرٌ تَرَى شُمَطَ الرِّجَالِ عِيَالَهَا      لَهَا قَيْمٌ سَهْلُ الْخَلِيقَةِ آنَسُ

صَحْوُكَ إِذَا مَا الصَّحْبُ لَمْ يَجْتَوْا لَهُ      وَلَا هُوَ مُضْطَبَّبٌ عَلَى الزَّادِ عَابَسُ

وإزاء صورة الكرم الزاهية المشرقة في الحياة العربية التي يقدمها العربي تظهر العاذلة، وهي المرأة التي تلوم بعلمها أو أخاها على الإنفاق والكرم، ولأسباب عدة ترتبط بعدم استقرار الحياة في المجتمع العربي آنذاك: "أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة في الحياة وبدافع شخصي من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيتها ولزوجها، وأنها تحقق به آراها، فهي أشد من الأم حرصاً، وأشد منها لوماً على الإسراف، وهي ترى إسرافاً ما يعتده الزوج أريحية وواجباً محتوماً" (36).

وقد صور هذا اللوم الشاعر معاوية بن مالك بقوله: (37)

قَالَتْ سُمِيَّةُ: قَدْ غَوَيْتَ، بِأَنْ رَأْتُ      حَقّاً تَنَاوَبَ مَالَنَا وَوُفُودُ  
غَيِّي لَعْمَرُكَ لَا أَزَالُ أَعْوُدُهُ      مَا دَامَ مَالٌ عِنْدَنَا مَوْجُودُ

ويبادر متمم بن نويرة العاذلات بالشرب، فيقول: (38)

وَلَقَدْ سَبَقْتُ الْعَاذِلَاتِ بِشُرْبَةِ      رِيّاً، وَرَأَوْوَقِي عَظِيمٌ مُثْرَعُ

بل إن المرأة الجاهلية كانت تهدد زوجها بالطلاق والفراق، إن لم يكف عن الإنفاق والكرم، ومهما قدم الشاعر من أسباب وعلل تقنعها بما يصنعه في ماله إلا أنها تتوعده بالطلاق والمفارقة، وتصب سخطها وغضبها

عليه، فهذا المرقش الأصغر يتحدث عن الحالة التي وصل إليها بسبب مبادرة زوجه له بالعصيان والمسارة بالغضب، فيحاول إقناعها بأنه يرتجي من إنفاقه تحقيق المجد والرفعة، لعل هذا يهون من غضبها ويجعلها تعدل عن المفارقة، فيصور ذلك قائلاً: (39)

أَذْنَتْ جَارَتِي بَوْشَكَ رَحِيلٍ	بَاكِراً جَاهَرَتْ بِخَطْبِ جَلِيلٍ
أَزْمَعْتُ بِالْفِرَاقِ لَمَّا رَأَيْتَنِي	أَتْلَفُ الْمَالَ لَا يَنْدُمُ دَخِيلِي
ارْبِعِي، أَمَّا يَرِيكَ مِنْ نِي	إِرْتُ مَجْنَدٍ وَجَدْتُ لُبَّ أَصِيلٍ
عَجَباً مَا عَجِبْتُ لِلْعَاقِدِ الْمَا	لِ وَرَيْبِ الزَّمانِ حَمُّ الْخَبُولِ
وَيُضِيعُ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ	مِنْ شَقَاءٍ أَوْ مُلْكٍ خُلْدٍ بِحِيلٍ
أَجْمَلِ الْعَيْشَ إِنَّ رِزْقَكَ آتٍ	لَا يَرُدُّ التَّرْقِيعُ شَرَوْى فَتِيلٍ

ويرتبط لوم المرأة زوجها على إنفاق المال بخوفها عليه من تعريض نفسه وأهله للهلاك، وذلك في قول المخبل السعدي: (40)

وَتَقُولُ عَاذِلِي وَلَيْسَ لَهَا	بِعَيدٍ وَلَا مَا بَعْدُهُ عَلِمُ
إِنَّ الثُّرَاءَ هُوَ الْخُلُودُ وَإِ	نَّ الْمَرْءَ يُكَرِبُ يَوْمَهُ الْعَدَمُ
إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا تُخَلِّدُنِي	مَائِنَةً يَطِيرُ عِفَاؤُهَا، أَدُمُ

ولا يملك الشاعر وسيلة لمواجهة موقف الزوجة والدفاع عن نفسه إلا بتقديم مسوغات لما يصنع، في نحو ما نرى في قول عمرو بن الأهتم: (41)

ذَرِينِي فَإِنَّ الْبَخْلَ يَا أُمَّ هَيْثُمَ	لِصَالِحِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقُ
ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي	عَلَى الْحَسَبِ الرَّأْسِ الرِّفِيعِ شَفِيقُ

ولا يقتصر لوم المرأة زوجها على الإنفاق والكرم، وإنما تلومه في إعزاز الخيل وتقديم اللبن لها، وذلك أن العرب كانوا يرفعون خيلهم ويؤثرونها أحياناً على أنفسهم وأهليهم، يقول حاجب بن حبيب الأسدي: (42)

بَاتَتْ تَلُومُ عَلَيَّ ثَادِقٍ	لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عَصِيَانُهَا
أَلَا إِنْ نَجَّوَاكِ فِي ثَادِقٍ	سَوَاءٌ عَلَيَّ وَإِعْلَانُهَا
وَقَالَتْ: أَغْثَنَا بِهِ إِنِّي	أَرَى الْخَيْلَ قَدْ ثَابَتْ أَثْمَانُهَا
فَقُلْتُ: أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّهُ	كَرِيمُ الْمَكْبَةِ مِبْدَانُهَا

على هذه الصورة يرد الكرم والجود في قصائد المفضليات، وصور اللوم على الإنفاق، فقد رسم كتاب المفضليات لوحات جميلة من الكرم وحسن الضيافة، وسجل لنا حياة العرب في الجاهلية وما يشاهدونه على مسرحها الفسح من صراع على إبراز القيم العليا والأخلاق الإنسانية الذي كان يترعرع الإنسان وينمو فيه. فالكرم قيمة منبعثة من قيمة الخير فهي الأسمى في الخصال، فالقيمة هنا لا تكاد أن تشير إلينا حتى تختفي لكي تحشد رغبتنا وتستدرج عملنا، فالخير يحفزنا عبر شكله الجميل الذي ينفرد هو بمجازفة الظهور، وهي بالتالي فضيلة تعكس الخير داخل الإنسان، فنراه يجود بماله ونفسه بكل سعادة؛ لأن الإنسان الفاضل سعيد بالضرورة، فالكرم يوضع على لائحة الفضائل وهي مهيمنة على طائفة القيم، وقوامها التضحية وهي قيمة يظهر تأويلها دينياً.

## 2- حسن الجوار

تعد هذه القيمة من أهم ما تربي عليه الجاهلي في الصحراء القاسية، وقد أدى هذا إلى إيجاد الملاذ الحقيقي لهم فكان الجوار، ولهذا الكلمة معنيان، نوضحهما لأن المفضليات زحرت بهما.

**المعنى الأول:** أجار؛ وتدل على عقد بين الطرفين ويكون أمام الملاء، فإذا أعلن ذلك وعلم الناس، صار الجار في ذمة الجير، وترتب على الجير أن يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على الجار وما يصدر عنه، وهذا ما يسمى الأحلاف، وهذه من السنن التي حافظوا عليها، واعتدوها كالقوانين، فإذا استجار شخص بآخر أو استجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجوار صيغة قانونية ووجب على الجار المحافظة على حق الجوار، وإلا نزلت السُّبة بالجير وازدراه الناس.

إذاً، يمثل قانون الجوار طبيعة الحياة الجاهلية التي تشد فيها المعارك والحروب، ويتغلب القوي على الضعيف فتضطر القبيلة إلى طلب جوار قبيلة أكبر منها، لتدافع عنها، وتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها، وتحافظ على نفسها ومالها بهذا الجوار<sup>(43)</sup>، وهذه القيمة الإنسانية تهدف إلى غاية سامية تتمثل في طلب الحماية وحفظ النفس الإنسانية، كما أنها تحافظ على دعائم المجتمع الجاهلي، وهذا يؤكد مبدأ الانتماء للقبيلة والمجتمع، فقد قال راشد بن شهاب البشكري يصور موقف الجاهلي من المستجير وعنايته به: (44)

وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ مِنَ الرُّدَى      وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَعِيزُ مِنَ الْعَدَمِ

فجعله مأوى لكل مستجير، وهذا دليل على حسن جواره والمحافظة على جاره، وقد قصد هنا الدخيل. كما افتخر العربي بحفظه لجاره في الجذب والقحط، فهو كريم حسن في معاملته، والجار الذي أجرته من أن يظلمه ظالم، والجير هو الذي يمنعه ويجيرك، يصف ذلك عوف ابن عطية في قوله: (45)

وَأَمْنَعُ جَارِي مِنَ الْمُجْحَفَا      تِ الْجَارُ مُمْتَنِعٌ حَيْثُ صَارَا

وأوصى الجاهلي ابنه بحماية جاره وحفظه، فيقول عمرو بن الأهتم: (46)

وَجَارِي لَا تُهَيِّنَنَّهْ، وَضَيِّفِي إِذَا أَمْسَى وَرَاءَ الْبَيْتِ كُورُ  
يَعُوبُ إِلَيْكَ أَشْعَثَ جَرَفَتُهُ عَوَانُ لَا يَنْهَى نَهْهَا الْفُتُورُ  
أَصِيبُهُ بِالْكَرَامَةِ وَاحْصِفْهُ عَلَيَّ، فَإِنْ مَنَظِقُهُ يَسِيرُ

وسجل الجاهلي صورة الحفاظ على الجار، لارتباطه الوثيق بالقبيلة، وقد قام بعضهم بمهمة سياسية ترأب الصدع بين القبائل، وتنتهي ما بينهم من أحقاد، فكان الشعراء يفتخرون بمن يصلح ما بعد الحرب وما وقع من دمار، فيفتخر عمرو بن الأهتم بإصلاحه ما وقع بعد الحرب، فيقول: (47)

فَأَصْلَحَ بَيْنَهَا فِي الْحَرْبِ مِمَّا أَلَمَ بِهَا أَخَوْتُهُ جَسُورُ

أما معاوية بن مالك فيفتخر بحرصه على إصلاح القبيلة بعد الحرب، وبنفسه بما حققه من إصلاح بقصيدة طويلة، منها: (48)

رَأَيْتُ الصَّدْعَ مِنْ كَعْبٍ فَأُودَى وَكَانَ الصَّدْعُ لَا يَعِدُ ارْتِثَابَا  
فَأَمْسَى كَعْبُهَا كَعْبًا وَكَانَتْ مِنَ الشَّنَانِ قَدْ دُعِيتُ كِعَابَا  
حَمَلْتُ حَمَالَةَ الْقُرَشِيِّ عَنْهُمْ وَلَا ظُلْمًا أَرَدْتُ وَلَا اخْتِلَابَا  
أَعُوذُ مِثْلَهَا الْحُكْمَاءَ بَعْدِي إِذَا مَا الْحَقُّ فِي الْأَشْيَاعِ نَابَا  
سَأَحْمِلُهَا وَتَعْقِلُهَا غَنِيٌّ وَأُورِثُ مَجْدَهَا أَبَدًا كِلَابَا  
فَإِنْ أَحْمَدُ بِهَا نَفْسِي فَإِنِّي أَتَيْتُ بِهَا غَدَاتِي صَوَابَا

والجار كذلك يحفظ هذه الحماية ويقدر حسن الجوار فيمتدح بحريه بصنيعهم وكرمهم، ومن ذلك ما جاء في قول مقاس العائذي: (49)

أَلَا أَبْلَغُ بَنِي شَيْبَانَ عَنِّي فَلَا يَكُ مِنْ لِقَائِكُمُ الْوَدَاعَا  
بِعِيشٍ صَالِحٍ مَا دُمْتُ فِيكُمْ وَعَيشُ الْمَرْءِ يَهْبُطُهُ لَمَاعَا  
إِذَا وَضَعَ الْهَزَاهِرُ زُؤَالَ قَوْمٍ فَرَزَادَ اللَّهِ أَلَكُمُ ارْتِفَاعَا  
فَقَدْ جَاوَرْتُ أَقْوَامًا كَثِيرًا فَلَمْ أَرَ مِثْلَكُمْ حَزْمًا وَبَاعَا

المعنى الثاني: جاور أي قرب في المكان، وهناك حقوق الجوار بالمحافظة عليه وعلى عرضه والدفاع عنه، وقد أوصوا بالجار خيرا، فلا يسيء إلى جاره وعليه أن يغض بصره عن عيوب جاره، وأن يكون يقظا في حفظ حقوقه،

فالجار الجنب هو القريب منك بالمكان ومن يتزل بقربك، وهذا الجار له حرمة نزوله في جواره ومنعته وركونه إلى أمانه وعهده، فحثوا على إكرام الجار ومراعاة حقوقه، يصور ذلك المثقب العبدى بقوله: (50)

أَكْرِمُ الْجَارَ وَأَرْعَى حَقَّهُ إِنَّ عِرْفَانَ الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمٌ

### 3- الحكمة

الحكيم في الآرامية بمعنى عالم، المصيب في رأيه الذي يقضي على شيء بشيء، وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها، والحكم هو الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة، والحكيم: المتقن للأمور وفي هذه دلالة على أنهم كانوا يسمون الحكمة بالتبصر في الأمور، والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس ويرشدهم في هذه الحياة. والحكيم في الشرق بمثالة الفيلسوف عند اليونان، لكن لا نستطيع أن نرادف بين الحكمة والفلسفة، ولا يمكن أن نقول إن مفهوم الحكمة عند الشرق هي الفلسفة بالمعنى اليوناني؛ لأن بين الفيلسوف والحكيم تبايناً في أسلوب البحث وفي كيفية التوصل إلى النتائج والمعرفة وفي الغاية المقصودة من كل منهما؛ فالغاية من الحكمة: العبرة والاتعاظ والأخذ بما جاء فيها من حكم، أي غايات عملية وتأديبية، أما الغاية من الفلسفة فالبحث عن معنى الحكمة وعما يكون وراء الطبيعة من خفايا غير مكتشفة وأسرار. (51)

فلم تخل قصائد الجاهليين من الحكمة، فهي تعد نتاج التجربة الحياتية للإنسان يبرزها في إطار إنساني عام، ويبين تجربته الحياتية ضمن واقعه، وتكون مرآة صادقة كاشفة عن الخصائص الاجتماعية للمجتمع، وعن مدى علاقة الشاعر الاجتماعية بالناس والمحيط.

وتعبر عن فلسفة الشاعر الأخلاقية والسلوكية والعقائدية، ويصب كل تجاربه في هذه القصائد، وقد تكون الحكمة لوناً من ألوان النصيحة لأحد الأقارب أو للناس عامة، فكما قلنا هي خلاصة حياته الفكرية الإبداعية والسلوكية أيضاً على نحو ما نرى عند عمرو بن الأهتم: (52)

وإنَّ المجدَّ أولُّهُ وعُورٌ وَمَصْدَرُ غَيْبِهِ كَرَمٌ وَخَيْرٌ  
وإنَّكَ لَن تَنَالِ المَجْدَ حَتَّى تَجُودَ بِمَا يَضُنُّ بِهِ الضَّمِيرُ

يتكلم عن المجد وأن عاقبته الكرم والخير معا، ويزيد قائلاً:

وإنَّ جَهْدُوا عَلَيَّ فَلَ تَهَبُّهُمْ وَجَاهِدُهُمْ إِذَا حِمِي الْقَتِيرُ  
فَإِنَّ قَصْدُوا لِمُرِّ الْحَقِّ فَاقْصِدْ وَإِنْ جَارُوا فَجُرْ حَتَّى يَصِيرُوا

فهي مكثفة مختزلة، كما أنها تعد دستور حياة، يقول ذو الإصبع العدواني: (53)

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ وَإِنْ تَخَالَقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينٍ

ويصف علقمة بن عبدة الجود يقارنه بالبخل وأنه مذموم وباق في أهله، مع أن الجود يهلك المال، فيرسم ما خلص إليه بحكمته: (54)

وَالْجُودُ نَافِئَةٌ لِلْمَالِ مَهْلَكَةٌ      وَالْبُخْلُ بَاقٍ لِأَهْلِيهِ وَمَذْمُومٌ

وهنا يتكلم عن التطير ولو أنه في حصن فلا بد أن يصله الشؤم:

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغُرْبَانِ يَزْجُرُهَا      عَلَى سَلَامَتِهِ لِأُبْدَ مَشْؤُومٌ  
وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ      عَلَى دَعَائِمِهِ لِأُبْدَ مَهْدُومٌ

وقول المثقب العبدى: (55)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّمَ تَقْصُّ لِلْفَتَى      وَمَتَى لَا يَتَّقِ الدَّمَ يَبْذُرُ  
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشُرُ لِي      حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبتُ شَتَمَ

ونرى المشهد متجلياً في قول علقمة بن عبدة، وقد أظهر خلاصة تجربته الحياتية حينما سُئل عن النساء، فقال: (56)

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي      بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ  
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ      فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنٍ نَصِيبٌ  
يُرْدَنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ      وَشَرُّهُ الشُّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ

ولم ينس الجاهلي الحديث عن الجاهل وكيفية التعامل معه، يقول عبد الله بن سلمة مصوراً لنا هذا المشهد: (57)

وَلَقَدْ أَصْحَابُ صَاحِبٍ ذَا مَأْقَةٍ      بِصِحَابِ مُطَّلِعِ الْأَذَى نَقِيرِيسٍ  
وَلَقَدْ أَزَاحِمُ ذَا الشَّنْدَاةِ بِمِزْحَمٍ      صَعْبِ الْبُدَاهَةِ ذِي شَنْذَا وَشَرِيسٍ  
وَلَقَدْ أَلَيْنُ لِكُلِّ بَاغِي نِعْمَةٍ      وَلَقَدْ أَجَازِي أَهْلَ كُلِّ حَوِيسٍ  
وَلَقَدْ أَدَاوِي دَاءَ كُلِّ مُعَبَّدٍ      بَعِيَّةٍ غَلَبَتْ عَلَى النَّطَّائِسِ

فالشاعر يستدح نفسه على موقفه من هذا الصاحب الذي يثير الغضب، لأنه يتعامل معه بالحكمة وحسن التصرف، وهذا دليل ذكاء الجاهلي وحكمته.

وقال المثقب العبدى في الحلم عن الجهال والسفهاء: (58)

وَكَلَامٍ سَيِّئٍ قَدْ وَقِرْتُ      أَذْنِي عَنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ  
فَتَعَزَّيْتُ خَشَاةً أَنْ يَرَى      جَاهِلٌ أَنِّي كَمَا كَانَ زَعَمُ  
وَلِبَعْضِ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ      ذِي الْخَنَا أَبْقَى وَإِنْ كَانَ ظَلَمُ

#### 4- الوفاء بالعهود والذمم

تحلى العربي في حياته الاجتماعية بالقيم التي تملئها عليه الحياة في الجزيرة العربية، ومن هذه القيم الوفاء بالعهود والذمم، وهي من القيم التي اكتسبها العربي من بيئته، إذ تشمئز نفسه من الخيانة والغدر.

وهي من الصفات التي تربى عليها الجاهلي مثلها مثل الكرم والجود، فالبينة بقسوتها وصلابتها قد علمتهم الوفاء، مع أن الصحراء مجدبة لا حياة فيها ولا وفاء لها، فقد يظن أن هناك ماءً من شدة العطش وما هو إلا سراب، لكن الجذب الصحراوي علمه الوفاء كما الكرم، فيمتدح الشعراء هذه القيمة الاجتماعية، فالوفاء بالعهود والذمم يغني الصحراء ويزيد القوافل التجارية، من خلال الصدق والأمن والوفاء بالعهد. يقول بشامة بن عمرو: (59)

فِيمَا هَلَكْتُ وَلَمْ آتِهِمْ      فَأَبْلَغُ أَمَانٍ لَسَهْمٍ رَسُولَا  
بِأَنْ قَوْمُكُمْ خَيَّرُوا خَصْلَتِي      مِنْ كِلْتَاهُمَا جَعَلُوهَا عُذُولَا  
خِزْيُ الْحَيَاةِ وَخَرْبُ الصَّدِيقِ      وَكُلُّ أَرَاهُ طَعَاماً وَبَيْلَا  
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا      فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرًا جَمِيلَا

ليس فقط الوفاء مع المجتمع بأكمله وإنما نجد الوفاء بالعلاقات الاجتماعية ما بين الأزواج أو الأحبة، يقول

الحادرة لسمية: (60)

أَسْمِيَّ وَيَحَاكِ هَلْ سَمِعْتَ بَعْدَرَةَ      رُفِعَ اللِّوَاءِ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعِ  
إِنَّا نَعْفُ فَلَا نُرِيبُ حَلِيفَنَا      وَنُكْفُ شُحَّ نَفُوسِنَا فِي الْمَطْمَعِ



ونستشف من خلال هذه الأبيات قيمة لا يجدها المجتمع الجاهلي، وهي صفة الغدر التي تعد من القيم السلبية في المجتمع الجاهلي وفي المجتمع الإنساني أيضاً، فمن يتصف بهذه الصفة يرفعون له لواء في سوق عكاظ بأنه يتصف بالغدر ليعرفه الناس.

## 5- صون العرض بالمال:

عرض الإنسان شرفه وكرمه وحياته؛ وهو أشرف ما يذود به الإنسان العربي، لذا أشاد الشاعر الجاهلي بحفظ العرض والدفاع عنه، فهدد وتوعد من يحاول النيل من العرض: "ونجد في الشعر الجاهلي تبجحاً بالنفس وإشادة في الدفاع عن العرض، وتهديداً ووعيداً لمن يحاول النيل منه بأي سوء، وهو كلام يحمل حساد المتبجح بنفسه على الرد عليه وعلى الطعن فيما قاله، وبذلك تتولد خصومة قد تطول وتكر وتؤدي إلى سقوط قتلى كانوا في غنى عنها لولا هذه الحمية الجاهلية القائمة على التفاخر والتباهي والزهو والحمق" (61). يقول ذو الإصبع العدواني: (62)

إِنْ تَزْعُمَا أَنْتَنِي كَبِرتُ فَلَمَّ      أَلْفَ بَحِيلَا نَكَسَا وَلَا وَرَعَا  
أَجْعَلُ مَالِي دُونَ الدُّنَا غَرَضًا      وَمَا هِيَ مِلَأُ مُورٍ فَانْصَدَعَا

كذلك ينفق المثقب العبدى ماله لأجل سلامة عرضه، يقول: (63)

يَجْعَلُ الْهَنْءَ عَطَايَا جَمَّةً      إِنْ بَعْضَ الْمَالِ فِي الْعِرْضِ أَمَمَ  
لَا يُبَالِي طَلِبُ النَّفْسِ بِهِ      تَلَفَ الْمَالِ إِذِ الْعِرْضُ سَلِمَ  
أَجْعَلُ الْمَالَ لِعِرْضِي جُنَّةً      إِنْ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَدَّى الذَّمَّ

فهذه تشكل قيما اجتماعية تسهم في بلورة المفاهيم الإنجابية في هذا المجتمع العربي، فرضتها طبيعة الحياة العربية التي جعلت الإنسان عرضة للمخاطر، مما كونت لديه سلوكيات طبع عليها وعرف بما تحفظه وتؤمن له حياة مثلى.

## 6- الشجاعة

وهي من الصفات التي اتصف بها العربي وأعلى من شأنها وافتخر بها وبأهلها، ونالت من الشعراء قصائد كثيرة، وتلك الصحراء منحتهم الشجاعة، فالطبيعة الجغرافية صعبة المراس فلا يستطيع أحد الدخول فيها، فهي مجهولة له، لكن من يمتلك معيار الشجاعة والبطولة يسير حينها في الأرض الموحشة دون تردد أو رية، يذكر ابن خلدون سبب ذلك بأن: "أهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، ويعدهم عن الحامية وانتباههم الأسوار والأبواب، قائمون بالدفاع عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح... قد صار لهم البأس خلقا، والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ" (64). وهذه من صفات الفارس الشجاع المقدام، يقول سلمة ابن الخرشب: (65)

مُخْتَضِ تَبِيضُ الرُّبْدُ فِيهِ      تُحَوِّمِي تَبْتُهُ فَهُوَ الْعَمِيمُ  
غَدَوْتُ بِهِ تُدْفِعُنِي سَبُوحُ      فَرَاشُ نُسُورِهَا عَجَمٌ حَرِمُ  
مِنْ الْمُثَلَّةِ تَاتِ بِجَانِبِهَا      إِذَا مَا بَلَّ مُحْزَمَهَا الْحَمِيمُ

وتبرز صفات الشجاعة في انطلاق الجاهلي في الصحراء والتوغل فيها ، مما يحمله على المشقة والخوف من المجهول الذي يكتنه داخل الصحراء فيقول المرقش الأكبر: (66)

وَدَوَّيَّةٌ غَبْرَاءٌ قَدْ طَالَ عَهْدُهَا      تَهَالَكَ فِيهَا الْوَرْدُ وَالْمَرْءُ نَاعِسُ  
قَطَعَتْ إِلَى مَعْرُوفِهَا مُنْكَرَاتِهَا      بَعِيْهَا مَةً تَنْسَلُ وَاللَّيْلُ دَامِسُ  
تَرَكْتُ بِهَا لَيْلًا طَوِيلًا وَمَسْرًا      وَمَوْقَدَ نَارٍ لَمْ تَرْمُهُ الْقَوَائِسُ

فلا تكمن الشجاعة فقط في الليل المظلم، بل نراه في النهار بارتفاع الشمس وحرارتها المحرقة، نلحظه في سفر شاق وطريق غير معروفة المعالم والاتجاهات في التوغل بالصحراء، يبدو هذا في قول المثقب العبدى: (67)

أَجِدْكَ مَا يُدْرِيكُ أَنْ رُبَّ بَلَدَةٍ      إِذَا الشَّمْسُ فِي الْأَيَّامِ طَالَ رُكُودُهَا  
وَصَاحَتْ صَوَادِيحُ النَّهَارِ وَأَعْرَضَتْ      لَوَامِعُ يُطْوَى رِطْطُهَا وَبُرُودُهَا

فالشجاعة والإقدام والقوة من الصفات الإنسانية التي تجلت بها الحياة الاجتماعية الجاهلية، ولعل قسوة البيئة والاحتراب على انتجاع الكلاء رفعاً من قيمة القوة والشجاعة، لذا حرص الشاعر الجاهلي على الافتخار بالشجاعة وبث قيمها في الآخرين، وأزرى على صفة الجبن وأهله في ظل مجتمع الغلبة فيه للقوي الشجاع.

## 7- الثأر

هو من القيم التي أوجبتها الطبيعة الاجتماعية في جاهليتهم، وغدا الثأر في رأيهم حائلاً يمنع الناس من قتل بعضهم، ولولا الخوف من الأخذ بالثأر لعمَّ القتل بالحياة (68). فالدم لا يغسل إلا بالدم، وتعويض المقتول بالمال مذلة، لا يرضى بها إلا ضعاف النفوس، فلا يقبلون بالقصاص، وقد: "بلغ من كلفهم بالثأر أنهم كانوا يتجافون النساء والخمر والطيب، لأنه ضرب من التمتع والبهجة لا يليق بحزين موتور، أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجسد في الثأر" (69).

وذلك لمعتقداتهم في أن الثأر يحو النجاسة عن أهل القتل، ويظهرهم تطهيراً، ويعيد لهم كرامتهم وحقهم الإلهي (70)، ويتخذ الثأر شكل العقيدة الدينية لما يكتنفه من حلف وقسم بوجوب الأخذ بالثأر، ولما يحوط به من شعائر دينية عندهم، فبدا العربي مفطوراً على الثأر، مجبولاً على التمسك به، وإنما هو أمر معتاد ليست له كل

الخطورة التي تنسج حوله، إذ للتأثر تأثيره، لأنه يعيد للجاهلي توازنه النفسي بعد الخسارة الفادحة التي ألمت به وبقومه عند سقوط حامي العشيرة، ومنجدها في الضنك والمغبة، وفي الهول والحرب<sup>(71)</sup>.

فيصور الشاعر الجاهلي الحالة التي تنتاب النفس البشرية إثر هذا الحدث، كما يبدو في قول الجُميح: (72)

لا تَسْقِيْنِي إِنْ لَمْ أُزِرْ سَـمَـرًا      غَطَفَانِ مَوَكِبَ جَحْفَلِ دَهْمٍ  
لَجِبِ إِذَا ابْتَدَأُوا قَنَابِلَهُ      كَنَشَاصِ يَوْمِ الْمِرْزَمِ السَّحْمِ  
مَجْرٍ يَغْصُ بِهِ الْفَضَاءُ، لَهُ      سَلَفٌ يَمُورُ عَجَاجُهُ، فَخَمِ  
يَنْعُونَ نَضْلَةً بِالرَّمَا حِ عَلَيَّ      جَرْدٍ تَكْدُسُ مِشْيَةَ الْعُصْمِ  
مِنْ كُلِّ مُشْتَرَفٍ وَمُدْمَحَةٍ      كَالْكَرِّ مِنْ كُفْتٍ وَمِنْ دُهِمِ  
حَتَّى أَجَازِي بِالْأَذْيِ اجْتَرَمَتْ      عَبَسَ بِأَسْنُو ذَلِكِ الْجُرْمِ

يصور الشاعر في الأبيات السابقة قصة مقتل نضلة بن الأشتر على يد بني عبس غدرًا، فيهجوهم لصنيعهم به، ثم ينذر القوم بالتأثر لنضلة، ثم يرثيه فيعدد مآثره في إكرام الضيف ورعاية الجار.

وكان الافتخار بالتأثر والحرص على الانتقام من دوافع الشعر الجاهلي، لأن طبيعة الحياة فرضت هذه العادة، فالقانون هو من وضع البشر، وحتى لا ينتهي هذا النوع البشري وحرصاً على البقاء كان الأخذ بالتأثر من ضروريات الحياة آنذاك، وهي صفة تعد إيجابية حينذاك، وعدم الأخذ بالتأثر مهانة ومذلة تلحق بالقبيلة، وهو سلوك إيجابي حثت عليه الطبيعة الصحراوية والشعر الجاهلي كذلك.

وتضمنت قصائد المفصليات حديثاً عن التأثر والحرب والوعيد والتهديد إلى جانب الفخر بالقبيلة، وبما أن الشاعر يتكلم عن التأثر والحرب فلا بد في مقدمته أن يتناول الفخر، فتمتزج ذات الشاعر بذات القبيلة، فلا نلاحظ انفصالاً بينهما، فعند الحديث عن البطولة تذوب (الأنا) في الـ (نحن) الجماعي، فالشاعر لا يقوم بتسجيل مواقفه البطولية فحسب، بل يسجل مواقف قبيلته ويفتخر بها قبل الفخر بنفسه.

فالحديث عن التأثر/الحرب مرتبط أيضاً بالحديث عن الشجاعة والقوة والبأس والثقة بالنفس في ساحات القتال، فيصف الشاعر قبيلته بكل صفات الحمد والمجد، ومن ذلك قول يزيد بن الحَدَّاقِ الشَّيْبِيِّ: (73)

يَأْبَى لَنَا أَنَا ذُووْ أَنْفٍ      وَأُصُولُنَا مِنْ مُحْتَدِ الْمَجْدِ  
إِنْ تَغَزَّ بِالْخَرْقَاءِ أُسْرَتْنَا      تَلَقَّ الْكَتَائِبَ دُونَنَا تَرْدِي  
أَحْسَيْنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ      أَمْ خَلَّتْنَا فِي الْبَاسِ لَا نُجْدِي  
وَمَكْرَرْتُ مُعْتَلِيًا مَحْتَنًا      وَالْمَكْرُ مِنْكَ عَلَامَةُ الْعَمْدِ  
وَهَزَزْتَ سَيْفَكَ كَيْ تُحَارِبَنَا      فَاَنْظُرْ بِسَيْفِكَ مَنْ بِهِ تُرْدِي

فالعربي يتمثل حياته الاجتماعية بتفاصيلها، ففي حديثه عن الحرب والثأر والشجاعة والأنفة والمجد، والحديث عن قبيلته وإظهار قوتها وبأسها، لا يفوته الحديث عن فرسه، فالخيل تمثل للعرب أساس الحياة بالصحراء، فالتنقل والصيد والحرب كلها تحتاج إلى خيل، لهذا يقف مطولاً في وصف الخيل وهي عدتهم الأساسية في القتال التي كانت مجالاً لإظهار الفروسية وإبداء البراعة في الكر والفر والمهجوم والدفاع، إذن الحديث عن الخيل أساس الوجود في الشعر العربي، يقول عوف بن عطية: (74)

وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ مَلْبُونَةً	تَرُدُّ عَلَيَّ سَائِسِيهَا الْحِمَارَا
كُمَيْتًا كَحَاشِيَةِ الْأَنْحَمِيِّ	لَمْ يَدْعِ الصَّنْعُ فِيهَا عُورَا
رُوعَ الْفُؤَادِ يَكَادُ الْعَنُفُ	إِذَا حَارَتِ الْخَيْلُ أَنْ يُسْتَطَارَا
لَهَا شُعْبٌ كِبَادِ الْغَبِي	طِ فَضَّضَ عَنْهَا بُنَاةُ الشَّجَارَا
لَهَا رُسُغٌ مُكْرَبٌ أَيْدُ	فَلَا الْعَظْمُ وَاهٍ وَلَا الْعِرْقُ فَارَا
لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِي	دِ يَتَّخِذُ الْفَارُ فِيهِ مَغَارَا
لَهَا كَفْلٌ مِثْلُ مَثْنِ الطَّرَا	فِ مَلَدَدٍ فِيهِ بُنَاةُ الْحِتَارَا

ففرسه سريعة، قوية محكمة الخلق، ضامرة مفتولة العضلات، متوقدة النشاط، خالية من أي عيب، كما أنه يفتخر بفرسه هذه لأنها مصدر قوته، وكأنها معادل موضوعي للشجاعة والإقدام.

ونرى في المفضليات أن الشاعر الجاهلي لا يكتفي بوصف الخيل فحسب، بل يعدد أسلحته الهجومية والدفاعية، كالسيف والدرع والقوس والترس، وتلمس هذا الوصف في أكثر قصائد الثأر، كي يشعر الخصم بأن مهاجمه قوي صلب، وليبت في نفس خصمه الرعب، فتخور عزيمته، وفي النصر مغنم للجماعة (القبيلة) ولل فرد المندغم في الذات الجمعية.

ولو تتبعنا ما قيل عن الحرب والانتقام والثأر والتحريض على أخذ الثأر لوقفنا على عدد وفير تمجس بما هذه القصائد، وهذا يعكس صورة الحياة الدامية التي سيطرت على المجتمع الجاهلي، ونشهد من خلال قصائدهم مظاهر من حياتهم الاجتماعية التي تظهر في القتال والممارسة اليومية لهذا العنصر، نستشهد ببعض منها، نحو قول يزيد بن الحذاف الشثي: (75)

نُعِدُّ لِيَوْمِ الرُّوعِ زَغْفًا مُفَاضَةً	دِلَاصًا وَذَا غَرْبٍ أَحَدَ ضُرُوسَا
نُحِيدُ عَلَيْهَا الْبَزَّ فِي كُلِّ مَازِقٍ	إِذَا شَهِدَ الْجَمْعُ الْكَثِيفُ خَمِيسَا

ويقول أوس بن غلفاء الهجيمي: (76)

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ جَنْبِي أَرِيكَ      إِلَى أَجَلَسِي إِلَى ضِلَعِ الرَّجَامِ  
بِكُلِّ مُنْفَقِ الجُرْدَانِ مَجْرٍ      شَدِيدِ الأَسْرِ للأَعْدَاءِ حَامِ

تمثل الأبيات الآنفه الصورة اليومية الدامية التي تفوح منها رائحة الموت والحياة معاً دون توازن بين الطرفين فرائحة الموت أشد، فمن ترك ثأره حلت عليه لعنة العار والهوان.

فالثأر هو من العادات السلبية في مفهومنا القيمي الحالي، بيد أنه كان من أهم عادات العرب الجاهليين، فلا يتردد أحد عن أخذ ثأره، وإلا فهو ضائع خاضع ويصغر أمام القبائل الأخرى.

فالمفضليات ترسم لنا هذا المظهر بشكل حي، وكأنا سجل حياتي لمظاهر مختلفة من واقع الحياة اليومية الذي عاشه العربي آنذاك.

ويعد الغزو وسيلة مشروعة من وسائل الحياة في المجتمع الجاهلي، وكان يحدث هذا أحياناً عن دوافع قبلية تتصل بأمن القبيلة ومكانتها الاجتماعية، وأحياناً تمثل مطلباً رئيساً من متطلبات الحياة الاجتماعية، فحياتهم استمرت بالحرب .. الثأر .. الانتقام، الدفاع عن العرض.

والقيم الأخلاقية الاجتماعية التي تناولها الشاعر تمثل غطاءً حماسياً في ذهن العربي الجاهلي من الحرص على الانتقام والثأر، البطولة، الشجاعة، المروءة والكرم.

## 8- الخمر ومجالس الشرب

وهي مما أغرم بها العرب و: "أولعوا بها ليزجوا فراغهم الطويل الممل ولتزيدهم حمية وحماسة في الحرب، فإنهم كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة". (77)

فكانت الخمر إحدى المتع التي يتمتع بها الشاب العربي آنذاك، فهي واحدة من ثلاث متع: الخمر والقمار والنساء (78)، وبذلك غدت الخمر في حياتهم طقساً دينياً اجتماعياً، بل لعله ارتبط ببعض معتقداتهم الجاهلية فمنهم من يرى في الخمر مشروباً يكسب قوة وأنفة، وعمدوا إلى شربها وسيلة للسكر والنسيان، والمتعة والهروب من واقعهم المرير، وفي هذه البوتقة لا بد من الخروج على الطبيعة الصحراوية بقتل فراغهم والبحث عن مسليات تلهيهم عن قساوة الطبيعة: "ويبدو أن الخمر كانت وسيلة لملء ذلك الخواء النفسي، والفكري، وذلك الحرمان الذي كان يغشى الإنسان الجاهلي في مواجهة جور الإنسان وقسوة المكان وجهود المجتمع، فكأنها كانت تلقي على حياة الجاهلي نوعاً من النسيان، وتصور له الحياة التي لا يستطيع أن يعيشها في ظل ظروفه القاسية، كما أنها كانت عند السادة نوعاً من أنواع الترف والنعيم بالحياة ووسيلة لملء الفراغ الوجودي من خلال حضرة مصطنعة يواجهون بها إحساسهم بالتناهي والدثور". (79) ذكر الشاعر الجاهلي الخمر في شعره ووصف تأثيرها ومناقبها، ومن ذلك قول عوف بن عطية (80):

كَأَنِّي اصْطَبَحْتُ عُقَارِيَّةً      تَصْعَدُ بِالْمَرْءِ صِرْفًا عُقَارَا  
سُلَافَةً صَاهِبَاءَ مَاذِيَّةٍ      يَفْضُ الْمُسَابِيءَ عَنْهَا الْجِرَار

فسميت الخمر بالعقار لمعاقرتها، أي ملازمتها الدن<sup>(81)</sup>، ولقد وصفوا الخمر ورائحتها، فهذا الأسود بن يعفر يرى أن الدن مرفوع على نصائب، وقد طابت رائحته لما عليه من طيب وريحان فيقول: (82)

سُلَافَةُ الدَّنِّ مَرْفُوعًا نَصَائِبُهُ      مُقَلَّدَ الْفَعْوِ وَالرَّيْحَانِ مَلْثُومَا  
وَقَدْ نَوَى نِصْفَ حَوْلٍ أَشْهَرًا جُدْدًا      بِبَابِ أَفْأَنَ يَنْتَارُ السَّلَالِيْمَا  
حَتَّى تَنَاوَلَهَا صَاهِبَاءَ صَافِيَةٍ      يَرْشُو التَّجَارَ عَلَيْهَا وَالتَّرَاجِيْمَا

ويرسم المسيب بن علس صورة بديعة بتشبيه ثغر صاحبه بخمر جيدة مزجت بماء جدول صافٍ، كما يشير إلى بياض أسنانها، فيقول: (83)

وَمَهًا يَرْفُ كَأَنَّهُ إِذْ ذُقْتُهُ      غَانِيَةً شَجَّتْ بِمَاءٍ يَرَاعِ  
أَوْ صَوْبٍ غَادِيَةٍ أَدْرَتْهُ الصَّبَا      بِيَزِيلٍ أَزْهَرَ مُذْمَجٍ بِسِيَا

وقد شغفوا بالخمر في مجامعهم الفرحة في الأعراس والأعياد والاحتفالات التحالف، وقدموها قرى للضيف، يقول الأسود بن يعفر النهشلي متحدثاً عن سقا الخمر، وقد لبس بعضهم الأقراط والأحزمة: (84)

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةً      بِسُلَافَةٍ مُزِجَتْ بِمَاءٍ غَوَادِي  
مِنْ خَمْرٍ ذِي نَطْفٍ أَغْنَى مُنْطَقِي      وَأَفَى بِهَا لِذَرَاهِمِ الْأَسْجَادِ  
يَسْعَى بِهَا ذُو ثَوْمَتَيْنِ مُشْمَرٌ      قَنَأْتُ أَنَامِلُهُ مِنْ الْفِرْصَادِ

وقد يجود العربي بالخمر، فيصور الشاعر هذا الكرم ويتخذ منه رداً على العاذلات، كما يقول متمم بن نويرة: (85)

وَلَقَدْ سَبَقْتُ الْعَاذِلَاتِ بِشُرْبَةٍ      رِيًّا، وَرَاوُوقِي عَظِيمٍ مُثْرَعُ  
جَفْنٌ مِنَ الْغَرِيبِ خَالِصٌ لَوْنُهُ      كَدَمِ الذَّبِيحِ إِذَا يُشْنُ مُشْعَشَعُ  
أَلْهُو بِهَا يَوْمًا وَأَلْهِي فِتْيَةً      عَنْ بَثْنِهِمْ إِذْ أَلْبَسُوا وَتَقَنَّعُوا

أما عن مجالس الخمر فتختلف أوقاتها، فنجدهم يذكرون أنهم كانوا يتصبحون بها، كما يبدو في قول الحادرة: (86)

مُتَبَطِّحِينَ عَلَى الْكَثِيفِ كَأَنَّهُمْ      يَبْكُونَ حَوْلَ جِنَازَةٍ لَمْ تُرْفَعِ  
بَكَرُوا عَلَيَّ بِسُحْرَةٍ فَصَبَحْتُهُمْ      مِنْ عَاتِقِ كَدَمِ الْغَزَالِ مُشْعَشَعِ

كما يصور الشاعر مجلس الشرب وحال أصحابه وقت شربهم، وكأنه يقصد بهذا المشهد أن يصور تأثير الخمر وعملها في أجسادهم، ويربط لونها بلون دم الغزال لشدة حمرة هذه الصورة نجدها عند ثعلبة بن صعيبر بن خزاعي المازني في قوله: (87)

بَاكَرْتُهُمْ بِسِبَاءِ جَوْنٍ ذَارِعٍ      قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَبْلَ لُغْوِ الطَّائِرِ  
فَقَصَرْتُ يَوْمَهُمْ بِرِثَّةِ شَارِفٍ      وَسَمَاعِ مُدْجِنَةٍ وَجَدْوَى جَازِرِ  
حَتَّى تَوَلَّى يَوْمُهُمْ وَتَرَوْهُمُ      لَا يَنْثَنُونَ إِلَى مَقَالِ الزَّاجِرِ

كذلك حال ربيعة بن مقروم الضبي، إذ تعقد مجالس الخمر في الصباح، فيقول: (88)

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ قَدْ صَحَتْ سُلَافَةٌ      إِذَا الدَّيْكَ فِي جَوْشٍ مِنَ اللَّيْلِ طَرَبَا  
سُخَامِيَّةً صَهْبَاءَ صِرْفًا، وَتَارَةً      تَعَاوَرُ أَيْدِيهِمْ شِوَاءَ مُضْهَبَا  
وَمَشْجُوحَةً بِالمَاءِ يَنْزُو حَبَابُهَا      إِذَا الْمُسْمِعُ الْغَرِيدُ مِنْهَا تَجَبَّأَا

يكثر هذا المشهد في قصائد الجاهليين لأنها ترمز إلى الكرم وإلى الملل من هذا الواقع، وترسم هذا الاضطراب النفسي المستمر بتنقله من حالة الحرب إلى حالة السلم، فكان الملاذ الوحيد الخمر، واللذة بها.

## 9- الميسر والقمار

ومن وسائل المتعة التي لجأ إليها الجاهلي في حياته الميسر والقمار، فكان الميسر من مفاخر العرب، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وأيام الشتاء، كما أنه ضرب من المقدرة والكرم: "وكانت طريقته أن يجتمع الموسرون ويشترى جزورا يقسمه الجزار عشرة أجزاء، ثم يجاء بالقداح، فيأخذ كل من الأيسار على مقدرة، ثم يسلمونها إلى أمين يدفعها في الرمل أو يضعها في خريطته، ويدخل يده ويخرج قدحاً وهكذا". (89) فمنافع الميسر أن أهل الثروة والأجواد من العرب كانوا في شدة البرد وتقلب الزمان يتقامرون بالقداح، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة وأهل المسكنة، هذا إلى جانب هذه الفائدة الاجتماعية، فإن للميسر فائدة اقتصادية تسهم في رواج سوق الإبل والماشية.

مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في العصر الجاهلي ... ماهر أحمد المبيضين، و عيسى عودة برهومة

والذي يُقدِّم على بذل ماله بهذه الوسيلة كرم جواد، فامتدحت العرب المياسرة، وحين يهجونه يعبرونه بالكف عنه، ويسمونه "البرم" وعليه جاء قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك: (90)

وَلَا بَرَمًا تُهْدِي النَّسَاءُ لِعَرْسِهِ إِذَا الْقَشْعُ مِنْ حَسِّ الشِّتَاءِ تَقَعَّعَا

فهو ينفي عن مالك حرصه على المال بدليل إقدامه على الميسر، وهو يرمز إلى الكرم، لذلك افتخر المرقش الأكبر بإقبال قومه على الميسر، لأنهم يؤثرون نفع الناس وإغاثتهم حين يمر على الناس الصيف، فيقول: (91):

إِذَا يَسْرُوا لَمْ يُورِثِ الْيَسْرُ بَيْنَهُمْ فَوَاحِشُ يُنْعَى ذِكْرُهَا بِالْمَصَافِي

كذلك سلامة بن جندل، فيقول: (92):

قَدْ يَسْعُدُ الْجَارُ وَالضَّيْفُ الْغَرِيبُ بِنَا وَالسَّائِلُونَ، وَتُعْلِي مَيْسَرَ النَّيْبِ

فيغدو الميسر من الوسائل الاجتماعية التي تحقق التضامن، وتخلق حالة من البذل، تنأى بالفقير عن مهانة الخنوع وذل السؤال، فيأخذ المال بعرف اجتماعي عن طريق الميسر، كذلك يفخر سنان بن أبي حارثة أنه لعب الميسر والرياح الباردة قد اضطرت النوق إلى الرواح، وأنه قد أطعم أهل الحي من جيران وعفاة، فيقول: (93)

وَقَدْ يَسْرَتْ إِذَا مَا الشَّوْلُ رَوَّحَهَا بَرْدُ الْعَشِيِّ بِشَفَّانٍ وَصُرَّادٍ

ثُمَّتَ أَطْعَمْتُ زَادِي، غَيْرَ مُدْخِرٍ أَهْلَ الْمَحَلَّةِ مِنْ جَارٍ وَمِنْ جَادٍ

وعلى الرغم من أن الميسر من العادات الجاهلية التي دأب الإسلام على تحريمها في قوله تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما" (البقرة آية 213) إلا أنه قد كان لها فائدة اجتماعية واقتصادية إلى جانب القيمة الأخلاقية التي امتدح بها العرب، وأن للموروث من المعتقدات الأسطورية أثراً في بلورة قيم أخلاقية.

وهذه العادة قد نفعت الفقراء والمحتاجين آنذاك، حتى غدت لديهم قيمة أخلاقية تحقق فائدة اجتماعية، وفيها تتجسد مظاهر التكافل الاجتماعي من منظورها الأخلاقي، وهي الوسيلة التي من خلالها تتم مساعدة الفقراء، في حين جاء الإسلام بوسائل أخرى لمساعدتهم، وكانت هي البديل الوحيد للتكافل والتضامن الاجتماعيين.

القسم الثاني: القيم السلبية

## 1 - البخل

أكثر الشعراء من الحديث عن الكرم والكرماء وتغنوا به ومدحوه وافتخروا بالكرم، وفي مقابل هذه الصورة وُجِدَ البخل، فذمموه واستقبحوه.



ويعتد البخل من العادات السلبية في المجتمع الجاهلي الذي ذمه المجتمع ونادى إلى هجائه، فكان من الجاهليين غادرون وجبناء وبخلاء ومتهربون من إغاثة الملهوف وجشعون لا يعرفون تعففاً، وإلا لم يكن داع لفخر الشاعر ما دامت تلك الفضائل صفات مشتركة للجميع وما دامت أصدادها لا تقع أبداً من أفراد آخرين<sup>(94)</sup>، يقول علقمة ابن عبدة: (95)

وَالْجُودُ نَافِئَةٌ لِلْمَالِ مَهْلَكَةٌ وَالْبُخْلُ بَاقٍ لِأَهْلِيهِ وَمَذْمُومٌ

ويقول عمرو بن الأهثم: (96)

بِنَفْسِكَ أَوْ بِمَالِكَ فِي أُمُورٍ يَهَابُ رُكُوبَهَا الْوَرَعُ الدُّنُورُ

أي أن يجود بماله وبنفسه لأن لا قيمة للمال فهو ذاهب والصيت باق.

ويقول عوف بن الأحوص بطريقة غير مباشرة عن ذم الأخلاق الرذيلة وغير المحببة: (97)

وَلَكِنْ هُلِكَ الْأَمْرُ أَنْ لَا تُمَرَّةٌ وَلَا خَيْرٌ فِي ذِي مِرَّةٍ لَا يُغَيِّرُهَا

وبشكل مباشر يذم عمرو بن الأهثم البخل ويدعو زوجته ألا تدعوه إلى البخل، وأن تشجعه على الكرم، فيبشع من صورة البخل، قائلاً: (98)

ذَرِينِي فَإِنَّ الْبَخْلَ يَا أُمَّ هَيْثُمَ لَصَالِحِ أَحْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقُ

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الْحَسَبِ الزَّائِكِي الرَّفِيعِ شَفِيقُ

وَإِنِّي كَرِيمٌ ذُو عِيَالٍ تَهْمُنِي نَوَائِبُ يَغْشَى رُزْؤُهَا وَحُقُوقُ

ويقول ذو الإصبع العدواني: (99)

إِنْ تَزْعُمَا أَنَّنِي كَبِرتُ فَلَمْ أَلْفَ بِخَيْلًا نَكْسًا وَلَا وَرَعًا

فأينما وجد الكرم والافتخار به وجد على النقيض مباشرة ازدراء البخل وذمه، فهما متلازمان، ونلاحظ أحياناً ذم البخل والبخل بالإيحاء.

## 2- الغدر والخيانة

والغدر هو نقيض الوفاء وهو من أنبل الخصال الحميدة، والغدر عادة يشتمل منها العربي، فبالرغم من الوفاء الذي يسود مجتمعه والعلاقات الاجتماعية الحميمة والوثيقة الصلة، إلا أنه يبقى مجتمعاً بشرياً يسوده الحمود والمذموم من العادات، يقول الحادرة نافيا عن نفسه صفة الغدر: (100)

أُسْمِي وَيَحْكُ هَل سَمِعْتَ بَعْدَرَةَ رُفِعَ اللَّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعٍ

فمن يغدر لا يصفح عنه المجتمع الجاهلي بسهولة ولا يتعامل معه، بل يعاقبه ويؤدبه كي لا يقع في هذه الصفة مرة أخرى، فيرفع لواء في سوق عكاظ أمام جميع الناس والوفود القادمة إليه فيشهرّون به بأنه غدر، وهذه صفات مذمومة في كل مجتمع على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وهي من العادات السلبية وغير المحبذة في المجتمع الجاهلي، يقول يزيد بن الحذاق: (101)

نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِغٌ      يُخْفِي ضَمِيرُكَ غَيْرَ مَا تُبْدِي

### المحور الثاني: الأسرة والعلاقات الأسرية

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التي يمكن الوقوف عليها من خلال المفضليات جوانب تتعلق بحياة الأسرة في المجتمع القبلي في إطارها الضيق، كعلاقة الزوج بالزوجة، والأسرة في إطارها الواسع وتشمل العلاقات بين الأقارب، وسيتم طرحها في نقاط:

الأولى: موقف الزوجة من زوجها، ويتجسد هذا الموقف في مشهدين، المشهد الأول: يتمثل في علاقة الزوجة بزوجها علاقة إيجابية تقوم على الاحترام ومراعاة كل منهما حقوق الآخر، ومن هذه الحقوق عدم إفشاء المرأة سر الزوج مهما غاب عنها، وهذا المشهد يصوره علقمة بن عبدة في قوله: (102)

مُنْعَمَةٌ مَا يُسْتَطَاعُ كِلَامُهَا      عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تُزَارَ رَقِيبُ  
إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تُفْشِ سِرَّهُ      وَتَرْضِي إِيَابَ الْبَعْلِ حِينَ يَوُوبُ

أما المشهد الثاني فيتمثل في علاقة الزوجة بزوجها علاقة سلبية، من ذلك نشوزها ونفورها من زوجها لأسباب متعددة، ويرسم هذا المشهد الشاعر الجميح حيث يقول: (103)

أَمْسَتْ أُمَامَةٌ صُمْتُ مَا تُكَلِّمُنَا      مَجْنُونَةٌ أَمْ أَحَسَّتْ أَهْلَ خَرْوَبِ  
مَرَّتْ بِرَاكِ مَلْهُوزٍ فَقَالَ لَهَا      ضُرِّي الْجَمَاحَ وَمَسِيهِ بِتَعْذِيبِ  
وَلَوْ أَصَابَتْ لَقَالَتْ ، وَهِيَ صَادِقَةٌ      إِنَّ الرِّيَاضَةَ لَا تُنْصِبُكَ لِلشَّيْبِ  
يَأْبَى الذِّكَاءُ وَيَأْبَى أَنْ شَخِخُكُمْ      لَنْ يُعْطِيَ الْآنَ عَنْ ضَرْبٍ وَتَأْدِيبِ  
أَمَّا إِذَا حَرَدَتْ حَرْدِي فَمُجْرِيَةٌ      جَرْدَاءُ تَمْنَعُ غَيْلاً غَيْرَ مَقْرُوبِ  
وَإِنْ يَكُنْ حَادِثٌ يُخْشَى فَذُو عِلْقٍ      تَظْلُلُ تُزْبُرُهُ مِنْ خَشْيَةِ الذِّيبِ  
فَلِنْ يَكُنْ أَهْلُهَا حَلُّوا عَلَى قِصَّةٍ      فَلِنْ أَهْلِي الْأَوَّلَى حَلُّوا بِمَلْحُوبِ  
لَمَّا رَأَتْ إِبْلِي قَلْتُ حَلُوبُتُهَا      وَكُلُّ عَامٍ عَلَيْهَا عَامٌ تَجْنِيبِ

أَبْقَى الْحَوَادِثَ مِنْهَا وَهِيَ تَتَّبِعُهَا      وَالْحَقُّ صِرْمَةٌ رَاعٍ غَيْرِ مَغْلُوبِ  
كَأَنَّ رَاعِيَنَا يَخْذُو بِهَا حُمْرًا      بَيْنَ الْأَبَارِقِ مِنْ مَكْرَانَ فَالْلُوبِ  
فَإِنْ تَقَرَّرِي بِنَا عَيْنًا وَتَحْتَفِضِي      فِينَا وَتَنْتَظِرِي كَرِّي وَتَعْرِيبِي  
فَأَقْنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَحْظِي وَتَحْتَلِي      فِي سَجَلٍ مِنْ مُسُوكِ الضَّانِ مَنْجُوبِ

يذكر الشاعر في الأبيات صدور الزوجة عنه، وكأنها قد أصيبت بالمس والجنون، فسمحت لرجل من أعدائه أن يتلاعب بعواطفها ويقنعها بالمفارقة، فغدت صامته لا تتكلم معه، مما يدل على التجربة المريرة التي عاشها الجميح في ضوء نشوز زوجته (104)، فيشكو هنا الزوج من سلوكها مدافعاً عن نفسه، ساخراً من زوجته، وهي قصيدة من أشد القصائد التي احتفظت بها المفضليات طرافة، وفي رأي الدكتور محمد النويهي أنها صادرة عن صميم التجربة الحية النابضة، وأنها تقترب اقتراباً عجيباً من لغة الحديث الحية الزاخرة التي يتحدث بها الناس في واقع تجاربهم. (105) ونحن نعد هذه القصائد ومثيلاً صورة مثله لبعض التفاصيل التي حدثت في المجتمع الجاهلي، ولتبيان مدى التقارب ما بين المجتمعات الإنسانية على اختلاف العصور والأزمنة.

فهذه صورة مشهدية بمظهر اجتماعي يدور في إطار العلاقة الزوجية التي يبرر فيها الشاعر تلك المشاجرات التي حدثت بينه وبين زوجته التي أبدت سلوكاً غير مرغوب فيه، فكان الشاعر أراد من خلال هذه الأبيات أن يذكرنا بمشهد حياتي صادق.

ولعل الفقر سبب النشوز بين الأزواج، علاوة على أسباب أخرى كالحياة القاسية وإسراف المال وإنفاقه على الفقراء، والبعد عن الأهل والشيب وعلو السن، فقد عبر عن هذه الظاهرة السلبية في الحياة الزوجية الشاعر الأسود ابن يعفر، في قوله: (106)

لَمَّا رَأَتْ أَنَّ شَيْبَ الْمَرْءِ شَامِلُهُ      بَعْدَ الشَّبَابِ، وَكَانَ الشَّيْبُ مَسْؤُومًا  
صَدَّتْ وَقَالَتْ: أَرَى شَيْبًا تَفَرَّعُهُ      إِنَّ الشَّبَابَ الَّذِي يَعْلُو الْجَرَاثِمَا

ولعل الشاعر علقمة بن عبدة أكثر معرفة بالنساء وسلوكياتهن، فيقول: (107)

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي      بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ  
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ      فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهَنْ نَصِيبٌ  
يُرْدَنْ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ      وَشَرَحُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ

فعلقمة أصبح طبيباً خبيراً بأدواء النساء، فيصور حبهن للمال وللشباب، فإذا زال أحدهما أصبح ودهن بعيداً غير منال.

وتظهر صورة أخرى للمرأة في المفضليات من خلال مشهد سلمي، وتعرف هذه المرأة بالعاذلة، وهي التي تتدخل في سياسة إنفاق الزوج ولومه على إنفاق ماله والكرم به خوفاً من الهلاك، إذ كانت ترى أن الحياة صعبة وأن أولادها أحق به، وقد تحدثنا عنه بتفصيل في الكرم لارتباطه به.

## الثانية: العلاقات الأسرية الواسعة

### 1. الرثاء

حينما نلج في الحديث عن الرثاء تحضرنا المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية التي تفيض بالحبّة للميت، فلا نستذكر عنه إلا كل طيب، ويذكر الجاهلي محاسن الميت ويعبر عن أخلاقه ومناقبه ويكي عليه بكاءً حاراً، ويدعو له، وقد عدّه يحيى الجبوري نوعاً ثانياً من أنواع الرثاء التي ذكرها، إذ جعلها في ثلاثة أنواع، تبدأ بالنيّاح والعيول وتنتهي بالتفكير في مصير الإنسان بالحياة والدرهم، ويتوسطها هذا النوع الذي نحاول استجلاء ملامحه بوصفه ظاهرة اجتماعية برزت في المفضليات. (108)

ولم يأت الحديث عن الرثاء في المفضليات منفصلاً كباقي المظاهر التي تناولها البحث إلا في عرضه لأربع قصائد إسلامية، علماً بأن المنهج الرثائي قد تغير بتغير الحياة، وجاء الحديث عنه في أبيات متناثرة ومتفرقة لا تشكل قصائد مستقلة، فليست هناك قصائد جاهلية خالصة للرثاء بل هي مقطوعات قيلت في الرثاء، ونحن هنا بصدد دراسة رثاء الجاهلية.

ولقد تعددت مظاهر الرثاء بين رثاء الزوج والزوجة والأبناء والإخوة، وفي الغالب: "كان رثاؤهم بكاء على حياتهم القصيرة، وتصويراً لمأساة البشر في مواجهة الموت الحق، واعتراضاً بالضعف الإنساني أمام قوة القاهرة لا مفر من حكمها، وتأملاً في الحياة القصيرة المليئة بالأوجاع والآلام". (109) ويقول المرقش الأكبر: (110)

هَلْ بِالْأَدْيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ      لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقاً كُلَّمْ

ويقول الممرّق العبدي متأماً بحتمية الموت ونهاية الإنسان، قد سيطرت عليه حالة من التشاؤم والكآبة: (111)

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ      أَمْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ

لكننا نلاحظ أن كتاب المفضليات يضم مشاهد رثاء النفس/ الذات أكثر من أي نوع آخر، فقد وقف عبدة ابن الطبيب يتأمل مصيره بعد الموت، فقال: (112)

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ قَصْبِرِي حُفْرَةً      غَبْرَاءُ يُحْمِلُنِي إِلَيْهَا شَرْجَعُ  
فَبَكَى بَنَاتِي شَجْوَهُنَّ وَزَوْجَتِي      وَالْأَقْرَبُونَ إِلَيَّ، ثُمَّ تَصَدَّعُوا

فهو مؤمن بمصيره بالموت بعد هذه الحياة المليئة بالملهيات والمتع، فيصور نفسه وقد حُمِلت إلى القبر، وما هي إلا أيام معدودة تبكي فيها بناته وزوجته والأقربون حزناً لموته، ثم يتفرقون ويعود كل شيء إلى حاله بعد ذلك. كما أنه لم يعد الشاعر يرثي ميتاً قريباً أو صديقاً بل أخذ يرثي نفسه وكيف سيحزن عليه أناسه، يصف ذلك عبد يغوث الحارثي في قوله: (113)

فَبَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْ نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا  
أَحَقَّاءَ عِبَادِ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ سَامِعاً نَشِيدَ الرَّعَاءِ الْمُعْزِينَ الْمَتَالِيَا

وإذا نظرنا في مقطوعات الرثاء وجدنا جانباً من التشاؤم من قضية الموت، وبالتالي فهي محاولة لفلسفة هذه القضية الغرائبية الغيبية، فما الذي يدفع الإنسان إلى الحرص على الدنيا ما دام أنه تاركها وكل ما يجمعه ليس له، فهو للوارث الباقي، يقول الممزق العبدى: (114)

هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تَوَلَّعْ بِإِشْفَاقِ فِئَمَمَا مَالَنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِي  
كَأَنِّي قَدْ رَمَانِي الدَّهْرُ عَنْ عُرْضِ بِنَافِذَاتِ بِلَا رِيَشٍ وَأَفْوَاقِ

وظهرت صورة رثاء الإخوة التي مثلها متمم بن نويرة في رثائه أخاه مالكا، مما يؤكد رابطة الأخوة في العصر الجاهلي، إذ تُظهر العاطفة الصادقة التعبير عما ألم بالشاعر من حزن، ولذلك نجد الشعراء يقدمون على رثاء إخوانهم الذين فقدوهم بأرق المشاعر الإنسانية وأعذبها، فيقف الشاعر على خصال أخيه المحمودة فيذكرها، يقول متمم بن نويرة: (115)

فَعَيْنِي هَلَا تَبْكِيَانِ لِمَالِكِ إِذَا أَذْرَتِ الرِّيحُ الْكَثِيفَ الْمَرْفَعَا  
وَلِلشَّرْبِ فَابْكِي مَالِكَا وَلِبُهِمَةِ شَدِيدِ نَوَاحِيهِ عَلَيَّ مَنْ تَشَجَّعَا

ويصف مشهد التفرقة والرحيل بعدما وضع في التراب: (116)

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

ثم هو يصور ما ألم به من الأرق والوجع لهذا المصاب في قصيدة أخرى، حيث يقول: (117)

أَرَقْتُ وَنَامَ الْأَخْلِيَاءُ وَهَاجَنِي مَعَ اللَّيْلِ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ وَجِيعُ  
وَهَيَّجَ لِي حُزْنًا تَذَكَّرُ مَالِكِ فَمَا نَمْتُ إِلَّا وَالْفُؤَادُ مَرْوُغُ  
إِذَا عَبْرَةٌ وَرَغَّتْهَا بَعْدَ عَبْرَةٍ أَبْتُ وَاسْتَهَلْتُ عَبْرَةً وَدُمُوعُ  
كَمَا فَاضَ غَرْبُ بَيْنَ أَفْرُنِ قَامَةِ بُرُوءِي دَبَارَا مَآؤُهُ وَزُرُوعُ

فقد أصابه الأرق لشدة حزنه حين يذكر مالمكاً، وإن دموعه لا ينضب معينها، وكأنها ماء الدلو ذو الثقب الواهية، فيظهر من خلال هذا التفجع والحسرة على فقدان مالك مما يؤكد عمق الروابط الأخوية بينهم، ولا يمتلك الشاعر أمام هذا المصاب الجلل إلا الدعاء بالسقيا لقبر الميت، يقول: (118)

سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ      ذَهَابَ الْعَوَادِي الْمُدْجِنَاتُ فَأُمْرَعَا  
وَأَثَرَ سَيْلِ الْوَادِيَيْنِ بِدَيْعَةٍ      تُرْشَّحُ وَسَمِيًّا مِنَ الثَّيْبِ خِرْوَعَا

فمن خلال هذه الأبيات نستنتج مدى عمق الرابطة الأخوية، فهي إحدى القيم الاجتماعية الإنسانية الخالدة، فكان المجتمع الجاهلي مجتمعاً إنسانياً فيه من التلاحم والترابط بين الأخوة والأقارب، فالنسيج الاجتماعي كان موصولاً، وإن داخله صراع واحتراب.

### 3- البغض بين الأقارب

غالباً ما تكون العلاقة بين الأقارب متلاحمة، بعيدة عن البغض والكراهية والحقد، فهم يد واحدة تهب لنصرة أفرادها، والعصبية القبلية التي أوجدت الكثير من القيم والعادات بين أفراد القبيلة أو العائلة الواحدة في العصر الجاهلي، تسببت في إيجاد بعض المزالق لدى أفراد القبيلة التي تؤدي إلى تفكك عراها، وأحياناً يؤدي بهم هذا البغض إلى مراجعة النفس وإبراز محاسن أفراد القبيلة على نحو ما نجد في قول ذي الإصبع العدواني: (119)

وَلِي ابْنُ عَمٍّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ      مُخْتَلِفَانِ فَأَقْلِيهِ وَيَقْلِينِي  
أُزْرِي بِنَا أَكْنَا شَالَتْ نَعَامُنَا      فَخَالِنِي دُونَهُ بَلْ خِلْتُهُ دُونِي  
يَا عَمْرُو إِلَّا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي      أَضْرِبُكَ حَيْثُ تُقُولُ الْهَامَةُ اسْقُونِي  
لَا ابْنَ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ      عَنِّي، وَلَا أَنْتَ دَيَانِي فَخُزُونِي  
وَلَا تُقَوِّتْ عِيَالِي يَوْمَ مَسْغَبَةٍ      وَلَا بِنَفْسِكَ فِي الْعَزَاءِ تَكْفِينِي  
إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ      عَنِ الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونٍ  
وَمَا لِسَانِي عَلَى الْأَذَى بِمُنْطَلِقٍ      بِالْمُنْكَرَاتِ، وَمَا فَتْكَ بِمَأْمُونٍ  
عَفٌّ نَدُودٌ إِذَا مَا خِفْتُ مِنْ بَلَدٍ      هُونًا فَلَسْتُ بِوَقَافٍ عَلَى الْهُونِ  
دُرْمٌ سِلَاحِي فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ      تَرَعَى الْمَخَاضَ، وَمَا رَأْيِي بِمَعْنُونٍ  
إِنِّي أَبِيُّ أَبِي ذُو مُحَافَظَةٍ      وَابْنُ أَبِي أَبِي مِنْ أَبِييْنِ

فيصور الشاعر حاله مع ابن عمه الذي يكرهه ويحقد عليه كما يحقد الشاعر عليه كذلك، مما أدى به إلى أن يتوعدة إن لم يكف عن شتمه، وهنا يلجأ إلى الفخر بحسبه، ويبين صفاته وخصاله، وأن أمه لم تكن راعية، وهو محافظ أبي، ويتصف بالإباء والشجاعة.

ويلمح المثقب العبدى إلى العلاقات الاجتماعية الزائفة بين الناس، وأن هناك رياء ونفاقاً بين الأقارب، وهي حالة تسود في المجتمع الجاهلي، لأن الحرية مقتصرة عليهم ولا تصل إلى حد الجماعة أحياناً، فكان الشاعر يجرهم عن هذا الفعل.<sup>(120)</sup>

لا تَرَانِي رَاتِعاً فِي مَجْلِسٍ      فِي لُحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ الضَّرْمِ  
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يُكْشِرُ لِي      حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِيبْتُ شَتْمَ  
وَكَلَامِ سَيِّئٍ قَدْ وَقُرْتُ      أَذْنِي عَنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمَمِ

فكان الناس في حضرته لا يتكلمون عنه إلا بالطيب ويمدحونه ويمجدون خصاله، وحين يغيب عنهم ويغادر مجالسهم فإنهم يذمونهم ويقبحون أفعاله وأقواله، لكنه عن كل هذا يوقر أذنه ولا يسمع كلامهم، ويتصامم عن السيئ من كلامهم. وهذه الصفة لا تقلل من قيم المجتمع الجاهلي وعاداته وسلوكه، فهو كأى مجتمع إنساني تسوده الإيجابيات والسلبيات.

#### 4- الهجاء

حفلت المفضليات بمشهد الهجاء والذم، فالمدح والكرم يقابلهما الهجاء والذم، الهجاء لكسب الحرام، وانتهاك الحرمات، والطغيان عند الغنى، واللؤم عند الفقر، فالهجاء من إحدى نقاط التوازن الاجتماعي، وهو طبيعة في النفس الإنسانية ترتبط بتفاوت الناس في حظوظهم من الرزق والجمال والسلطان، فالهجاء سلاح من أسلحة القتال يضعف الشاعر، ويرتبط بالوعيد والبحث عن العيوب، ولعل المنافسة هي الدافع وراء الهجاء والتعبير عن الشعور بالسخط تجاه الخصوم، إذ كان قديماً أثراً من آثار الانتقام والتفشي، فلازم الهجاء الإنسان، وذلك لكي: "يؤدي وظيفة اجتماعية ونفسية تشبه التطهير، حيث يتخلص الشاعر وقومه من بعض النزعات بإرضاء ميلهم لتحطيم نموذج يكرهونه خلال التجربة التي يعيشونها، وهم يقيمون ضمناً نموذجاً مضاداً لنموذج الهجاء".<sup>(121)</sup>

ولقد نشأ الهجاء مرتبطاً بالعصبيات القبلية التي هي ظاهرة إيجابية في الحياة الاجتماعية العربية حين يكون المقصود بها نصرة ذوي القرى حقاً، ذلك لأن الظروف التاريخية والبيئية العربية الصحراوية والمجتمع العربي القبلي، كل هذه الأمور جعلت العصبيات القبلية من هذا الجانب نافعة وضرورية للمجتمع.<sup>(122)</sup>

وارتبط الهجاء عادة بالحروب وازدهر بازدهارها وكثيراً مايسبقها، فالشاعر لسان القبيلة الذي ينوب عنها ويهجو خصومها ويدافع عنها، لذلك نجده مرتبطاً بالفخر والمدح، وقد

تحوّل الهجاء لدى بعض الشعراء إلى هجاء قومهم، وذلك نحو قول عميرة بن جُعل: (123)

كَسَا اللَّهُ حَيِّي تَغْلِبَ ابْنَةَ وَاثِل	مِنَ اللَّؤْمِ أَظْفَارًا بَطِيئًا نُصُولُهَا
فَمَا بِهِمْ أَنْ لَا يَكُونُوا طَرُوقَةً	هَجَانًا ، وَلَكِنْ عَفَرْتُهَا فُحُولُهَا
تَرَى الْحَاصِنَ الْعَرَاءَ مِنْهُمْ لِشَارِف	أَخِي سَلَّةٌ قَدْ كَانَ مِنْهُ سَلِيلُهَا
قَلِيلًا تَبَغَّيْهَا الْفُحُولَةَ غَيْرُهُ	إِذَا اسْتَسْعَلَتْ جِنَّتَانُ أَرْضٍ وَغُولُهَا
إِذَا ارْتَحَلُوا مِنْ دَارِ ضَمِيمٍ تَعَاذَلُوا	عَلَيْهِمْ ، وَرَدُّوا وَفَدَهُمْ يَسْتَقِيلُهَا

فيهجو عميرة قومه بني تغلب، ويذكر أنهم لم يؤتوا في لؤمهم من قبل أمهاتهم، إنما أتوا من قبل آبائهم، وأن المرأة الكريمة منهم تتزوج الرجل المسروق النسب، أي الذي لا يُعرف أبوه، ومن ذلك جاءهم الهجاء، ثم أنحى عليهم باللائمة في أنهم يرضون الذل ويسبقونه، ورسم لذلك صورة طريفة في قوله: (124)

إِذَا ارْتَحَلُوا مِنْ دَارِ ضَمِيمٍ تَعَاذَلُوا      عَلَيْهِمْ ، وَرَدُّوا وَفَدَهُمْ يَسْتَقِيلُهَا

أي أنهم من ذلهم إذ أخذتهم العزة فرحلوا عن منزل الذل أدركهم ذلهم، فتعاذلوا لم تركوه؟ وبعثوا وفدهم إلى أهل ذلك المنزل يستقبلهم خطيبتهم التي أخطأوها بانتقالهم.

وكان الهجاء يشمل البخل الذي يدفعهم إلى إخفاء نارههم حتى لا تُرى ليلاً، ويمثل الهجاء الحقد الذي يملأ عليهم صدورهم، فيقول المرقش الأكبر: (125)

لَسْنَا كَأَقْوَامٍ مَطَاعِمُهُمْ	كَسَبُ الْخَنَاءِ وَنَهْكَهُ الْمُحَرَّمِ
إِنْ يُخْصِبُوا يَعْبِيُوا بِخَصْبِهِمْ	أَوْ يُجْدِبُوا فَهُمْ بِهِ أَلَمِ
عَامَ تَرَى الطَّيْرَ دَوَاخِلَ فِي	بُيُوتِ قَوْمٍ مَعَهُمْ تَرْتَمِ
وَيَخْرُجُ الدُّخَانُ مِنْ خَلَلِ	سِتْرِ كَلَوْنِ الْكَوْدَنِ الْأَصْحَمِ
حَتَّى إِذَا مَا الْأَرْضُ زَيَّنَتْهَا	تَبَّتْ وَجُنَّ رَوْضُهَا وَأَكَمَّ
ذَاقُوا نَدَامَةً فَلَوْ أَكَلُوا	خُطْبَانَ لَمْ يُوجَدْ لَهُ عِلَقَمِ

ومن أشد الوصمات التي يوصم بها العربي أن يهجي أحدهم ويوصف بالرق، فقد كان العرب يأنفون من أن يكونوا عبيداً؛ لاعتزازهم ببقاء الدم الذي يجري في عروقهم، يقول عميرة بن جُعل: (126)

لِبَالِي إِذْ أَنْتُمْ لِرَهْطِي أَغْبُدُّ	بِرَمَّانٍ لَمَّا أَجْدَبَ الْحَرَمَانِ
وَإِذْ لَهُمْ ذُوذٌ عَجَافٌ وَصِيبَةٌ	وَإِذْ أَنْتُمْ لَيْسَتْ لَكُمْ غَنَمَانِ
وَجَدَّا كَمَا عَبْدَا عَمِيرَ بْنَ عَامِرٍ	وَأَمَّا كَمَا مِنْ قَيْنَةٍ أَمْنَتَانِ



فقد هجا الشاعر رجلين ووصفهما بأن قومهما كانوا عبيد القوم، وكذلك كانت أمهاتهم، فالعبودية تمثل عند العربي الجاهلي وصمة عار؛ لأنه عاش حراً، يتحرك دون قيد أو حدود بسبب الطبيعة الجغرافية، فالصحراء واسعة لا حد لها ولا قيد فيها، لذلك فإن الحر لا يقبل إلا أن يكون سيداً.

وكان العرب إذا أسروا شاعراً شذوا لسانه لئلا يهجوهم، كما فعلت تميم مع عبد يغوث الذي يقول: (127)

أَقُولُ وَقَدْ شَذُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ أَمْعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلَقُوا عَنْ لِسَانِيَا

وقد يُصرِّح بعض الهجائيين باسم المهجو، فيقول الخَصْفِيُّ ذَاكراً اسم الحصين: (128)

يُعْنِّي حُصَيْنٌ بِالْحِجَارِ بَنَاتِهِ وَأُعْنِيَا عَلَيْهِ الْفَخْرُ إِلَا تَهْكُمَا

فيرد الحَصِينُ عليه بذكر الخَصْفِي المَحَارِبِ: (129)

لَأَقْسَمْتُ لَا تَنْفَكُ مِنِّي مُحَارِبٌ عَلَى آلَةٍ حَذَبَاءَ حَتَّى تَنْدَمَا

وَلَا غَرَوْ إِلَّا الْخُضْرُ خُضِرَ مُحَارِبٌ يُمَشُّونَ حَوْلِي حَاسِرًا وَمَلَامَا

والعرب تخشى الهجاء، فكانوا يتوارون منه خجلاً، لأنه يلزمهم ويلتصق بسمعتهم، ويتكلم به الناس عنهم، وأشد الناس خوفاً من الهجاء هم أشرف الناس ووجوه القوم.

وقد يكون الهجاء أكثر أثراً في السامع من المدح والفخر، فقد يُنسى شعر المدح لكن شعر الهجاء يبقى عالقاً في النفوس، وهو أشد إيلاماً من وقع السيوف؛ لذلك خاف منه الجاهليون وابتعدوا عن الأنظار حتى لا يهجووا.

### الخوَر الثالث: المعتقدات

من المعتقدات التي زحرت بها الطبيعة الجاهلية:

#### 1 - الإيمان بحتمية الموت

يعرض الشعراء للزمن وتقلبه، والمصير المحتوم الذي ينتظر الإنسان في الحياة، ليضع حداً لها كما وضع حداً لحياة من سبقه، مسجلاً في النهاية حتمية الموت الذي لا يعرف الإنسان متى يأتيه. كما أنهم يؤمنون أن كل إنسان على هذه الأرض لابد من انتهاء حياته، يقول المَمَزُّق العبدِي: (130)

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ

ويؤمن بأن كل ما يتركه باقي على الأرض لا يأخذ معه شيئاً، فلماذا كل هذه المعاناة والتعب والخوف، فيقول: (131)

هَوْنٌ عَلَيَّ وَلَا تَوَلَّعْ بِإِشْفَاقٍ فَإِنَّمَا مَا لَنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِي

وقول علقمة بن عبدة: (132)

وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ عَلَى دَعَائِمِهِ لِأَبَدٍ مَهْدُومٌ

وهي الفكرة التي كانت تمثل تدميراً للحياة، لكنها أصبحت تمثل فكرة صيرورة وتجدد، فالحياة لا تدمر وإن كان هناك موت. وبسبب الخوف الدائم من المجهول، وبسبب قلقهم من المستقبل ظهرت لديهم معتقدات تبعد الشك من نفوسهم وتطمئنهم من الخوف من هذا المجهول، فكان زجر الطير وسيلتهم إلى ذلك، نذكر من هذه المعتقدات:

## 2- زجر الطير

وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها، وسائر أحوالها على الحوادث، واستعلام ما غاب عنهم، فالإنسان الجاهلي في شغف دائم لمعرفة الغيبات، فكأنهم يستنطقون الطير لتنبيههم بما يريدون معرفته من أمور مجهولة، فأصبح زجر الطير وظيفة في تشكيل الحياة اليومية الجاهلية، إذ تعني حركة الطير عندهم الفأل أو الشؤم، فكان الطير يحمل معرفة المجهول، فارتبط تفكيرهم به بالحياة والموت، وهذا إشارة إلى الضعف البشري، يقول علقمة ابن عبدة مستشهداً بهذا المشهد وبهذه الظاهرة: (133)

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغَرْبَانِ يَزْجُرْهَا      عَلَى سَلَامَتِهِ ، لِأُبْدَ مَشْؤُومٌ

وقد كان الغراب واحداً من أبرز رموز الشؤم لديهم، فإذا اقترب الغراب على أحد فلا بد أن يصيبه الشؤم؛ في هذه الصورة نجد نوعاً من مواجهة الإنسان الجاهلي في تلك البيئة -لمصيره أو لموته، ويدل هذا على ضعفه في هذه المواجهة.

## 3- التمايم

وهي من المعتقدات التي ارتبطت أيضاً بجلب الخير لصاحبها وإبعاد الشر عنه، فهي عبارة عن علائق تعلق في عنق الإنسان ظناً منهم أنها تجلب الخير، وتزيل ما به من أثر الحسد، وقد قيل بأنها قلادة تنظم في سير أو عودعة تعلق على الإنسان وغيره، فيستأنس بوضعها في عنقه اعتقاداً منه أنها تحفظه وتقيه من الأذى والموت، يقول سلمة بن الخرشب الأثماري: (134)

تُعَوِّذُ بِالرُّقَى مِنْ غَيْرِ خَبَلٍ      وَتُعَقِّدُ فِي قَلْبِهَا التَّمِيمُ

وهنا الشاعر يدعو إلى الاسترقاء بالتمايم دون الحاجة إلى الدواء، وهذا يؤكد معتقدتهم بأنها هي الشافية ليس في أعمالهم الكبيرة بل في حاجياتهم الصغيرة كرحلة الصيد مثلاً، ومن أشهر تمايم الجاهليين كعب الأرنب.

## 4- الاعتقاد بالهامة

وهذه الهامة ترتبط بعالم الأسطورة التي تمثل في حقيقتها الفكر الجاهلي، كما أنها جانب مهم في حياته النفسية والوجدانية في تمثيلها للكون والإنسان، فالهامة طائر يعتقد الجاهليون أنها روح الميت تتحول إلى طائر يظل هائماً بين الأحياء (135)، إيماناً منهم ببقاء الأرواح حية تتحول بين الناس حين لا يؤخذ بالثأر فتبقى مشردة ضائعة،

وتقرّبهم من هذه المعتقدات، بل تعلقهم بها ما هو إلا ملء الفراغ الروحي والفكري الذي يحيط بهم بعيداً عن العلم والمعرفة الحقة، ولتطمئن قلوبهم.

والهامّة أو الصدى هي حيوانات أسطورية، وهي رمز من رموز الظلام والعطش والموت وواسطة بين عالم الموتى وعالم الأحياء، وهي تخبر الميت بما يكون بعده. (136)

وقد نراه يتعلّق بأمور لا تنفع ولا تضر، لكنها صورة أسطورية، متعلقة بطبيعة حياتهم وتوجيه لمقتضيات الحياة والفراغ الذي ملأ حياة الجاهلية، وهي ما دعت إلى الوثوق. تمثل هذه المعتقدات من زجر الطير أو التمايم، أو الاعتقاد بالهامّة.

واتخذ الإيمان بالهامّة والصدى ضرباً من الاعتقاد عند الجاهليين، وقد تركزت في باب الثأر فضرب بالهامّة المثل، فقيل: هامة اليوم أو غد، وأصبح معتقداً يؤمنون به.

يشير ذو الإصبع العدواني إلى هذا الاعتقاد بقوله: (137)

يَا عَمْرُو لَا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي  
أَضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهَامَةُ اسْقُونِي

#### الخلاصة

نلاحظ من خلال البحث في مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات جملة من الملامح، اجتهدت الدراسة أن تجليها، وذلك من خلال منهج تحليل المضمون، أملاً في الوصول إلى العوامل والمحاور الأساسية التي تؤكدها هذه الأشعار، ومن ثم تلمس الظروف والملابسات والدوافع التي تضمنها، مع التنبيه إلى أن الشعر الجاهلي تعبير ذاتي عن وقائع خارجية مستقلة عن الوعي وصانعة له في الوقت ذاته. إن هذه المظاهر الثقافية والاجتماعية التي استنتقناها من خلال الشعر كالكرم والهجاء والرثاء والثأر برزت فيها عوامل مادية وأخرى ذاتية تشف عن وجود الإنسان، والواقع الاجتماعي والتاريخي واقع متحدات اجتماعية لإنسان لم يوجد بشكل فردي، بل إنسان شكلته قيم الجماعة كائناً من دغماً في الهم الجمعي.

لقد أومأت هذه النصوص التي عرضت لها الدراسة إلى معاناة العرب الجاهليين في صحرائهم في سنوات القحط والجذب، أو في مجاهل الصحراء الموحشة أو في لهُو الشاعر ومجونه وترفه، فما هي إلا معاناة هذا الإنسان في بيئته القاسية الصعبة، وكأنه يفر من هذه الحياة الواقعية لحياة خيالية يطمح إليها ويروم تحقيقها، فيظل مؤرقاً ساهراً يفكر في بيئته القاسية وفي كيفية انتصاره على الموت، كما أنها تمثل لديه انتصاراً على واقعه المؤلم وتعبيراً عن مخزون المجتمع الجاهلي في آماله وآلامه وأحلامه.

وقد بدا في القصائد التي تناولتها الدراسة في المفضليات أن صوت القبيلة يعلو وتتردد أصداؤه في ثنايا أبياتها بوضوح، فهي ترسم لنا صورة حية للحياة الجاهلية وتبين علاقة الشاعر بتلك الحياة، فهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمشهد الاجتماعي وواقع في صراع الإنسان مع الطبيعة التي يتهدهده فيها العدم والموت، كما ظهر أن قصائد المفضليات لا تكشف لنا عن البعد الاجتماعي فحسب، وإنما تكشف لنا عن أبعاد أخرى شعورية ونفسية لدى الإنسان الجاهلي.

### الهوامش

- (1) ج. كول: النظرية الاجتماعية، ت: عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988م، ص34، وعاطف عطية: المجتمع، الدين والتقاليد، منشورات جروس برس، لبنان، ط1، 1992م، ص25.
- (2) فاروق العادلي: علم الاجتماع العام، التكامل لإنتاج المواد الثقافية 198، ص111.
- (3) المرجع السابق، ص114.
- (4) فاروق العادلي: علم الاجتماع العام، ص114.
- (5) فهمي الغزوي وآخرون: المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق، ط1، 1992، ص182.
- (6) المرجع السابق والصفحة نفسها.
- (7) انظر جون رزفير: فلسفة القيم، ت: عادل العوّا، منشورات عويدات، لبنان، ط1، 2001، ص11-ص1.
- (8) المصدر السابق، ص14.
- (9) محمد بيومي: علم اجتماع القيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ط، د.ت)، ص149.
- (10) محمد بيومي: علم اجتماع القيم، ص149.
- (11) محمد نعاغ: الجود والبخل في الشعر الجاهلي، دار طلاس، دمشق، 1994، ص22.
- (12) أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط3، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص236.
- (13) الفضل الضبي (الفضل بن محمد بن يعلى الضبي، ت 178هـ)، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط6، (د.ت) بيروت، لبنان، ص160.
- (14) المصدر نفسه، ص214.
- (15) المصدر نفسه، ص172.
- (16) المصدر نفسه، ص158.
- (17) المفضليات، 73.
- (18) المصدر نفسه، ص401.
- (19) المصدر نفسه، ص256.
- (20) المصدر نفسه، ص265.
- (21) المصدر نفسه، ص323.
- (22) المفضليات، ص326.
- (23) المصدر نفسه، ص413.
- (24) المصدر نفسه، ص266-267.
- (25) المصدر نفسه، ص308.
- (26) المصدر نفسه، ص133-134.
- (27) المفضليات، ص273.

- (28) محمد نعناع: الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص277.
- (29) المفضليات، ص126، وانظر: صلاح الدين دراوشة: القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، مكتبة الفجر، إربد 2001، ص134.
- (30) المصدر نفسه، ص266.
- (31) المصدر نفسه، ص105.
- (32) عبد الله مقداد: من مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي، المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، مج3، ع4، 2000م، ص61.
- (33) عبد الله مقداد: من مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي، ص61.
- (34) المفضليات، ص127.
- (35) المصدر نفسه، ص226.
- (36) أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص217.
- (37) المفضليات، ص36.
- (38) المصدر نفسه، ص52.
- (39) المفضليات، ص250-251، وانظر ماهر المبيضين: الأسرة في الشعر الجاهلي، دراسة موضوعية وفنية، دار البشير، عمان، ط1، 2003، ص53.
- (40) المفضليات، ص118.
- (41) المصدر نفسه، ص125-126.
- (42) المصدر نفسه، ص268-369.
- (43) جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة، ط3، 1980، ج4، ص607.
- (44) المفضليات، ص308.
- (45) المصدر نفسه، ص413.
- (46) المصدر نفسه، ص410.
- (47) المفضليات، ص294.
- (48) المصدر نفسه، ص358.
- (49) المصدر نفسه، ص305.
- (50) المصدر نفسه، ص294.
- (51) للمزيد انظر جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8، ص85.
- (52) المفضليات، ص410.
- (53) المصدر نفسه، ص160.

- (54) المفضليات، ص 401.
- (55) المصدر نفسه، ص 293-294.
- (56) المصدر نفسه، ص 392.
- (57) المصدر نفسه، ص 107.
- (58) المصدر نفسه، ص 294.
- (59) المصدر نفسه، ص 59.
- (60) المصدر نفسه، ص 45.
- (61) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص 407-408.
- (62) المفضليات، ص 154.
- (63) المصدر نفسه، ص 295.
- (64) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د. ط، 2004، ج 2، ص 476.
- (65) المفضليات، ص 39.
- (66) المصدر نفسه، ص 225.
- (67) المصدر نفسه، ص 150.
- (68) جواد علي: المفصل، ج 4، ص 39.
- (69) أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 206.
- (70) أنور أبو سويلم: مرثاة الخنساء الإنسانية (الموت، الثأر، الخلود)، مجلة أبحاث اليرموك، م 4، ع 10، 198، ص 56.
- (71) المرجع نفسه، ص 56.
- (72) المفضليات، ص 367.
- (73) المصدر نفسه، ص 296.
- (74) المصدر نفسه، ص 413-414.
- (75) المصدر نفسه، ص 298.
- (76) المصدر نفسه، ص 387، و ضلع الرجام بالخاء والجيم.
- (77) أحمد الحوفي: الحياة العربية، ص 345.
- (78) جواد علي: المفصل، ج 4، ص 655.
- (79) حسني عبد الجليل يوسف: الشعر والمجتمع في العصر الجاهلي، الرؤية والنموذج الإنساني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 58.
- (80) المفضليات، ص 413.

- (81) جواد علي: المفصل، ج 4، ص 665.
- (82) المفضليات، ص. 418.
- (83) المصدر نفسه، ص 61.
- (84) المصدر نفسه، ص 218.
- (85) المصدر نفسه، ص 52.
- (86) المصدر نفسه، ص 46.
- (87) المصدر نفسه، ص 130-131.
- (88) المصدر نفسه، ص 376.
- (89) أحمد الحوفي: الحياة العربية، ص 362.
- (90) المفضليات، ص 265.
- (91) المصدر نفسه، ص 233.
- (92) المصدر نفسه، ص 120.
- (93) المصدر نفسه، ص 350-351.
- (94) أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 248.
- (95) المرجع نفسه، ص 401.
- (96) المفضليات 410.
- (97) المصدر نفسه، ص 178.
- (98) المصدر نفسه، ص 125-126.
- (99) المصدر نفسه، ص 154.
- (100) المصدر نفسه، ص 45.
- (101) المصدر نفسه، ص 296.
- (102) المصدر نفسه، ص 390.
- (103) المصدر نفسه، ص 34-36.
- (104) ماهر المبيضين: الأسرة في الشعر الجاهلي، 2003، ص 69.
- (105) محمد النويهي: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج 1، 1977، ص 215.
- وللمزيد انظر، مي يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليات، دراسة موضوعية وفنية، مكتبة غريب، القاهرة، ص 249
- (106) المفضليات: ص 418.
- (107) المصدر نفسه: ص 392، وانظر: صلاح الدين دراوشة: القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 80.
- (108) نجى الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 9، 2001، ص 178.

- (109) أنور أبو سويلم: مرثاة الخنساء الإنسانية، ص38.
- (110) المفضليات، ص237.
- (111) المصدر نفسه، ص300.
- (112) المصدر نفسه، ص148.
- (113) المصدر نفسه، ص156-157.
- (114) المصدر نفسه، ص300.
- (115) المصدر نفسه، ص266.
- (116) المصدر نفسه، ص276.
- (117) المصدر نفسه، ص271.
- (118) المصدر نفسه، ص268.
- (119) المصدر نفسه، ص162.
- (120) المصدر نفسه، ص294.
- (121) حسني يوسف: الشعر والمجتمع ، ص95.
- (122) علي الشيعي: ملامح اجتماعية في الشعر الجاهلي والإسلامي، دار الرفاعي، الرياض، 1986، ص23.
- (123) المفضليات: ص257.
- (124) المصدر نفسه، ص258.
- (125) المصدر نفسه، ص240.
- (126) المصدر نفسه، ص258-259.
- (127) المصدر نفسه، ص267.
- (128) المصدر نفسه، ص321.
- (129) المصدر نفسه، ص67.
- (130) المصدر نفسه: ص300.
- (131) المصدر نفسه، ص300.
- (132) المصدر نفسه، ص401.
- (133) المصدر نفسه، ص401.
- (134) المصدر نفسه، ص40.
- (135) أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر الجاهلي، سينا للنش، مصر، 1995، ص198.
- (136) المرجع نفسه، ص194.
- (137) المفضليات: ص136.